

د. نجمة خليل حبيب

جدتي تفقد الحلم

وقصص أخرى





جدتي تفقد الحلم

جدتي تفقد الحلم
وقصص أخرى

د. نجمة خليل حبيب



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: تشرين الأول/أكتوبر 2018 م - 1440 هـ

ردمك 978-614-02-3581-6

تــوزيـــع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبـجد غرافيكس،** بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم،** بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

أولاً: جدتي تفقد الحلم وقصص أخرى

رابعاً: وجدانيات

الإهدَاء

إلى أبو سامر، وكل أبو، لم يجرفه

تيار الانحطاط ولم يفقد الحلم

بعودة هذه الأمة إلى التاريخ[1]

أولاً:

جدتي تفقد الحلم

وقصص أخرى

جدتي تفقد الحلم

يا أولاد!... انتم لا تفهمون!!... انا ما عدت أحلم. لم أعد أرى منامات.. الأمر غريب... غريب... حياة بدون حلم!!... بدون منام!.. يعني.. يعني..

ونتبادل نظرات متآمرة مدينة...

- أنتم لا تعرفون ماذا يعني أن يقوم الواحد من نومه في الصباح ولا أثر لحلم في بدنه
- تيتا: تعشي مجدرة ويعود الكابوس مش بس الحلم!...

ونتغامز فيما بيننا... فتقرر أن تصمت. لو تكلّمَتْ أكثر سيظنون أنها خرَّفت قبل الأوان.

* * *

في الحلم كان يرجع اليّ كل ليلة، كأنه لم يمت، كأنه كان مسافراً وعاد، وعادت معه اللهفة والشوق والمداعبات الماجنة. في الحلم كانت عمليتنا أجمل: اتحلل من كل حياء.. أكفر بكل موانع.. أحبه كالعاهرات. في الصباح يذهب الحلم ويظل أثره كارتشافة خمر معتقة تسري في الأوصال ناعمة سلسة تخدر في الروح كل ما فيها من مراعاة مقتضى الحال. في الحلم تخطيت أوامر الجلاد وعبثت وغسلني عبثي المحظور بالذنب والعار. وأفقت في الصباح وأنا أحس لذّة العار والخطيئة يغسلاني كالجرب. أحس كل العيون مشدودة صوبي. كلها تدين كأنها كانت كلها معي في الحلم وشهدت على سقوطي وإثمي وعبثي المحظور. لا أذكر أنني سرقت مرة أو خنت وطناً أو غدرت بصديق. غريب أن تخلو أحلامي من مثل هذه الملامح الرئيسية في النفس الامارة بالسوء!..

ماذا أفعل لأعيد الحلم إلى حياتي!؟.. يا رب!. حلم واحد، حلم واحد فقط، حتى ولو كابوس... حلمت يوماً أن ابني البكر قد مات.. في الصباح بكيت بحرقة الأم الثكلى. تطلعت إلى المرآة فرأيت أثر البكاء في عيني واحديداب الظهر فوق كتفيّ وألم الثكل بكل ما فيه من فقد وحسرة... رأيت نظرات الشفقة والموآساة في عيون كل من تلاقت عيناي عينيهم. سمعت أذني عبارات التعزية والمجاملة بكل ما فيها من صدق ورياء. الغريب أن أذني كانت قادرة على تمييز الصدق من الرياء في نفس اللحظة التي تسمعهما. في الصباح دخلت غرفة ولدي وتشممت ثيابه ومرغت وجهي فوق فراشه. رأيت نفسي أحبه حباً خالياً من الشوائب. كمثل ما أحببته أول مرة وقع عليه نظري بعد طول مخاض. عندما عاد في المساء شعرت بالندم لكل لحظة نفور أو غضب أو تخلٍ راودتني تجاهه كرد فعل على عقوقه وقسوته وتجاهله لمشاعري، وغمرته عيناي، دون أن تتجرأ يداي، بفيض من حنان لا يمكن أن تجود العواطف بأنقى منه

حلمت يوماً أنني ضبطت رجلي في فراشي مع أخرى. لم أغضب، بل وقفت مختبئة أراقب وأتلذذ فعلهما. استفقت في الصباح ونفسي مشحونة بالاثم حتى أنني شعرت بتصلب في عضلات حوضي جراء تفعاعلاته مع وقائع الحلم بقيت طوال اليوم أحس بكرهي لنفسي وكرهي له حتى أنني لم استطع أن أرمي عليه تحية الصباح. ظللت طول النهار أحس أن مجرد سماع صوته يجلب لي الاشمئزاز، فما بالك بلمسته ومداعباته!!.. غاصت نفسي ذلك النهار بالمهانة الشرسة كالبرص. وتألمت وتألمت حتى شفاني الألم من برصي.

* * *

قرأت هذه الاعترافات على قصاصات ورق صفراء كانت مخبأة بين كنوز جدتي القليلة.

مسكينة جدتي!... عاشت أيامها الأخيرة دون حلم... في وحدة وبؤس قاتلين... ولكنها لم تعش طويلا بعد أن فقدت حلمها

* * *

بعد أن قرأت قصاصات جدتي تباطأت خطواتي اللاهثة وراء اليومي من أمور الحياة. صرت أستفيق كل صباح وعوض أن أفكّر بالمقالة التي سأكتبها او بالثرثرة التي سأنقلها لجاراتي أو بالعشاء الذي عليّ أن أعده لأسرتي، صرت أفكر ماذا حلمتُ هذه الليلة!!... ولا يهنأ لي بال حتى

تقف ذاكرتي عند أحد المنامات وتتكشف لي صوره... ورأيتني أتذكر الحلم وأعيد تفاصيله في خيالي.

يوماً بعد يوم رأيتُني مثل جدتي، أعيش مناخ الحلم ويتأثر جسدي بتفاصيله.

حلمت ذات ليلة أنني حرباء، أقفز فوق العشب الأخضر منه واليابس. كنت أتلوّن حسب ألوان المكان، انتقل بين الاخضر والبني والاصفر والرمادي. أحس حرارة الشمس تلذع ظهري وذبابات الحقل تحط فوق ذيلي الذي يروح يطردها بحركات دائرية عصبية قلقة. أحس العطش فأجري ابحث عن بقعة ماء وإذ يطول بحثي تتيبس حنجرتي وتخفق طالبة النجدة ولو من رطوبة الهواء. وفيما انا في أزمتي الخانقة، يحاصرني صبيان أشقياء، يرمونني بالحجارة فأحس وقعها فوق ظهري فأنسى ما بي من عطش وأهرع الى جذع شجرة اختبيء بأحد شقوقه واتخذ لونه حتى ييأس الصغار ويتركونني بحالي.

أعود للبحث عن ماء بعد ان ابتعد ضجيج الصغار وهرجهم، فألمح جارحاً من الطيور يترصدني. أكظم خوفي وعطشي وأختبيء في ظل ورقة توت وأنقلب الى الأخضر تماهيا معها. أحس حنان الورقة يلفني كحنان ذكر محب فاستسلم لمداعباتها فوق ظهري كما تستسلم الانثى الشبقى لذكرها أوّل الربيع.

في الصباح أعيش الحلم بكل مناخاته. أحسّ حر الشمس رغم برودة الجو في الخارج، فيفغر رجلي فاه وهو يراني أتخفف من ملابسي بهذه الطريقة الغريبة. على مائدة الإفطار أرى في عيون أطفالي المتصايحين، شراسة أطفال الحقل الذين رشقوني بالحجارة وترتفع يدي دونما إرادة مني لتدرأ الأذى عن رأسي وعيني... إنني حرباء!!... حتى خيِّل إليّ أن أطفالي يتهامسون ويقول واحدهم للآخر:

- أنظر وجه أمنا. إنها تشبه الحرباء. ليت والدي يطلقها ويتزوج امرأة أجمل...

في عيني زوجي، رأيت عيني الطائر الذي هاجمني في المنام، فهرعت إلى غرفة النوم والتصقت بالفراش حتى خيل لي أنني صرت زرقاء بلون غطائه.

في طقس الصبحية التي أحبيها والجارات كل صباح، انتقلتْ اوجاع بهية التي يضربها زوجها كلما يسكر، اليّ. صار جسدي مليئاً باللكمات كجسدها، وصارت نفسي خانعه كنفسها...

في مكتب الجريدة، رمقني مدير التحرير بنظرة لم أستطع تفسير معناها، ولكنني علمت أن مقالتي أدهشته، فقد كتبتها «حرباية» لها ألف لون ولون

سدني 2006

انا وأبو عمّار

أنا مستلقٍ، ليس على صخرة دهرية بيضاء كمخائيل نعيمة، بل على كنبة عتيقة في بيت منفرد قديم يفتح بابه مباشرة على الخارج. لا أقول شارعاً، فالبيت قبل أن يصل إلى الشارع يتدحرج على اثنين وتسعين درجة.

نائم أو هاجس لست متأكداً عندما دفع الباب ودخل «أبو عمّار» ببدلته الكاكية وحطته الفلسطينية بامتياز. كان يحمل في يده علبتي فول مدمس. قدّم لي واحدة فارتبكت. ألح وارتجفت شفته السفلى كعادته في أيامه الأخيرة. وقبل أن أرحب به وأدعوه للجلوس او أسأله عن سر هذه الزيارة لرجل درويش مثلي، دخل علينا من الباب نصف المشقوق دون أن يستأذن، رجل ضخم الجثة عريض المنكبين يبدو أنه من حرس الختيار. كان يحضن بين يديه خمس علب فول. عرضها عليّ فاعتذرت عن أخذها. ابتسم ابو عمار ولكن الرجل الضخم قال:

- شوف هياهم مسخنين. يلا قوم جبلنا صحون حتى نفطر.

كانت العلب منتفخة. قلت في نفسي هذا من التسخين. تركت ضيوفي ودخلت المطبخ لأحضر الصحون، تلقتني زوجتي وقالت بلهجة آمرة

- يلا «عالي» الطبخة على النار.

كان موقد الغاز الصامت عادةً، يهدر وكأنه موقد كاز (بريموس) قديم. وكان لهبه عَكِراً وله رائحة نافذة. وضعت وعاء الطبخ على النار وسكبت فيه مكونات الطبخة: اللحمة والجزر والبازيلا والبصل والثوم فتقافزت المواد ورفضت أن تستقر. فإن حركتها تنائرت أجزاؤها خارج القدر، وإن تركتها دون تحريك تأخذ بالاحتراق.

ما العمل؟ لسانها السليط سيلاحقني والضيوف في الصالة لا يجوز التأخر عليهم. أطفأت الغاز بعصبية وتمتمت: تضربي إنتِ وطبيخِك

استدرت إلى حيث نضع الصحون. مددت يدي لآخذ صحوناً من الدستة التي على اليمين فأحسست أنها غير نظيفة. تركتها وأخذت من الدستة التي على الشمال، فإذ هي أيضاً دبقة. قلت في نفسي، لا أحد غريب، سآخذ قدراً كبيراً (جاط). استدرت إلى الجهة المقابلة والتقطت قدراً يصلح للمناسبة، فرأيت غباراً عالقاً فيه. فتحت الصنبور كي أغسله فانساب الماء أسود كأنه مياه مجارير. أخذت فوطة الجلي ومسحته فصار كأنه مدهون بالسخام. دعكته بخرقة خشنة ولكن السخام كان شديد الالتصاق.

- لا لزوم لهذا الفطور... إعزمهم على الغدا (قالت بلهجة آمرة).

كرهتها!.. فأنا في هذه الورطة. أفشل في إحضار صحن نظيف لضيوفي وهي تفكر بالشكليات. أدرت ظهري صامتاً وتوجهت إلى غرفة الجلوس. قلت في نفسي، سأبدي عذري وأضع اللوم على شركة المياه...

كان الرجل لا يزال واقفاً. تقدمت منه ومددت يدي بالقدر. تطلع إليّ واقترب من أبو عمار وقال بلهجة حزينة معاتبة:

- يلا ختيار يلا نمشي. زلمتك بَدّو يطعمنا الفول مدمس بالشحبار.

سدني 2006

إرث جدتي

هو زيتونة دهرية ترقد راضية مرضية قانعة بما يُقدَّر لها من غذاء وماء. جوّادة معطاءة دونما جلبة أو مطالبة بحقوق أو رد دين. هي لا تتأفف إذا أهملتها، ولا تستجدي سقاية أو رعاية. إن حدث وتعطفْتَ عليها ببعض عناية كافأتك بصمت، وان لم تفعل، تابعت مسيرتها بصمت أيضا دونما معاتبة أو اقتصاص منك على إهمالك وتناسيك. وهي أيضا مقتصدة محتشمة، لا تظهر عورة ولا تتعرى مهما جارت عليها عوائد الفصول. لا يعتريها ما يعتري بنات جنسها من شبق ربيعي، فلا تزهو ولا تغوي ولا تفاخر، حتى انها لا تحسد جارتها شجرة اللوز التي تزهو كل ربيع بزهرها المشتعل فتنة. ثمرها أيضاً كزهرها، لا يغويك بسحر ولا ينصب لك شباك الفتنة لتقع صريع هواه، بل ينتظرك حتى تتعطف باسقاطه فلا يئن متوجعاً من ضربات «شاروطك» الظالمة ولا يقاضيك على قسوتك بل يمتثل كالزوجة الخانعة. يقبع خاضعاً في الزوايا المهملة في الخوابي المعتمة لا يشكو قسوة حر ولا شدة برودة. ينصاع صاغراً لحجار طاحونتك القاسية فلا يئن لثقل وطأتها بل يفرح لو رآك تتشمم سائله المخضر الجميل بعد عملية الهرس القاسي والمهين. قد تزهو بعض اغصانها الصغيرة مرة في العام عندما ترفعه ايدٍ طفولية ملوحة «مبارك الاتي باسم الرب. أوصانا في الاعالي. اوصانا في العلى»... جذورها عنيدة متشبثة بتربتها. وفية لهذه التربة، حريصة على ترجمة هذا الوفاء بالتغلغل عميقاً حد التوحد الصوفي بذراتها. مر فوقها أباطرة وملوك، طغاة وجبابرة، من مشرق ومن مغرب، فما مالأت ولا خفضت «لغازٍ جبينا». كلهم زالوا وظلت هي على وفائها وسخائها

إرث جدتي فاطمة هو هذه الزيتونة التي ورثتها عن فاطمة، عن فاطمة عن فاطمة منذ الآف السنين. في فيئها غنت لأبنائها ومن بعدهم أحفادها حتى يناموا «وتيجيهم العوافي كل يوم بيوم»، وفي تجاويفها خبأت لنا ليوم العيد مفاجآت نتهلل لها ونتصايح عند توزيعها. وفوق أغصانها علقت

اطواق التين والمشمش والبامية لتجفف مؤونة للشتاء. وربما أيضاً خلف جذعها خَلَت بجدي سراً أيام المراهقة.

جدتها لجدتي حرصت على تسمية اغصان زيتونتها باسماء احفادها، وبما ان جدة جدتي لم تكن تعرف الكتابة، فقد طلت الاغصان باصباغ مختلفة: أحمر، أخضر، أسود، أصفر، زهري، بنفسجي وغيرها. أصرت جدة جدتي على ان تعيد الدرس على أحفادها وحفيداتها مراراً وتكراراً حتى تتأكد من انهم حفظوه جيداً، ولسوف ينقلونه دون اي خطأ لأبنائهم وأحفادهم ذكورا واناثاً:

- الاحمر غسان، الاخضر محمد، الابيض لميس، الأزرق مريم، البرتقالي زينب، الأصفر جريس، البنّي معروف والبنفسجي عائشة...

في هجومهم الاخير على بلدتنا، كانت مجزرتهم في زيتونها. صبرا وشاتيلا من نوع آخر. أصيبت جدتي بالذهول. لم تذرف دمعة على زيتونتها. لم تشتم... لم تلعنهم. لم تمطرهم بالدعوات كي الله ياخذهم. بقيت جامدة لا تسمع ولا تنطق. كالت امي عليهم اللعنات فلم تجبها كعهدها: «صواريخك كاسدة فتشي عن بضاعة غيرها». رمى أخي الصغير دبابتهم بحجر فما لوت رقبتها بحزن وقالت: «حسرتي عليك يا ولدي كيف العين «بدّها» تقاوم المخرز»!. قرأْتُ عليها مقالتي النارية والتوقيعات التي جمعتها احتجاجاً على اقتلاع الزيتون، فما هزئت بجهودي وما قالت «كلّو ضراط على البلاط». تلوْتُ عليها البيانات المستنكرة والمدينة لجمعيات الحفاظ على البيئة ومنظمات حقوق الانسان، وجماعة أنصار السلام، فما رفّ لها جفن...

ذلك الصباح رأيت جدتي واقفة مكتوفة اليدين منتصبة في وسط الدار. كانت قامتها مشدودة ورأسها مرفوعاً بإباء نحو السماء. كانت عيناها جامدتين لا تفصحان عن حزن أو غضب. قلت في نفسي:

- لو أن غسان كنفاني رآها، لكان قال فيها ما قاله بصاحب «العروس».

صباح الخير تيتا (قلت) فما التفتت صوبي.

ابتسامة عريضة كانت تضيئ جبينها الذي امحى منه ما كان له من تجاعيد. مددت يدي أطلب يدها لأقبلها فظلت جامدة ولم تتمنع لتقول لي كعادتها «بوس الأيادي ضحك على اللحى».

في زحمة الانشغال المهين بين هذا الحاجز وذاك، نسيت الملمح الاسطوري الذي وسم جدتي ذاك الصباح ولكنني انتفضت مستذكرة كل تفاصيله فيما المذيع يخبر عن امرأة في السابعة والخمسين من عمرها تقوم بتفجير نفسها بواسطة حزام ناسف بعد أن تركت رسالة مصورة تظهرها وهي تقرأ ورقة مكتوبة بخط اليد: أقدم نفسي فداء لشجر الزيتون المغتصب في بلادي

سدني 2006

اليوم برئت من سقمي

هذا الشاطئ الرملي المنعزل إلا من حجر اقتعدته، لم يملأني وحشة كما هي عادة الأماكن الموحشة. هدير موجه يوشوش في أذني كمناغاة أمير أحلام عاشق في أذن عذراء حالمة. انعكاس ضوء القمر فوق صفحة مياهه ينعكس سلاماً فضياً على صفحات روحي.

الصخور التي تظهر وتختفي تحت غمرة الموج وانحساره تملؤني قوة ورسوخاً رسوخ مخائيل نعيمة في ترداده:

سقف بيتي حديد ركن بيتي حجر

فاعصفي يا رياح وانهمر يا مطر

سقف بيتي حديد ركن بيتي حجر

أغمض عيني فتعود بي الذاكرة خمسين سنة إلى الوراء فأرى بركة «رميش»[2] الأزلية تخلت عن حلتها الآسنة وصارت مياهها صافية صفاء النفس المطمئنة، وأرى حقولها الكئيبة العطشى تجلّت بالأخضر اليانع المعافى

اتطلع الى صورة الوالد «أبو سمير» المعلقة على الحائط منذ ثلاثين سنة فأرى ابتسامته تتسع وشفتيه ترتجفان حماساً لـ«يحطَّ» على عيني قائلاً: شُفْتِ!... قُلْتُ لك إنّا لراجعون.

مستلقية الى جانب حفيدي أحكي له حكاية شادي التي كنت أحكيها لأمه عندما كانت في مثل سنه وأختمها تاركة شادي ضائعاً خلف الثلج، فتحزن الام وتنام كسيرة القلب، أحكيها هذه الليلة

وأغير نهايتها فأجعل شادي يعود غزالاً جميلاً يحمل لإخوته اللوز والسكر، فتبرق عينا حفيدي بالفرح وينام وابتسامة مشعة تغمر وجهه

أتجاهل المصعد وأقفز درجات السلم الطويلة، فلا أحس عجزاً في ركبتيّ، ولا حاجة للاستقواء بالدرابزين، ولا تقوساً في عضلات الظهر.

ابن الجيران يرقبني بعينين اتسعت حدقتاهما ويركض مهرولا ليذيع أن العجوز «أم سامر» مسّها جني فأعادها صبية ينت عشرين

أدخل غرفة الصف ولأول مرة لا أراني بحاجة للتفاخر بخالد ابن الوليد وعمر بن الخطاب. أسمعهم يتهامسون: اين ذهبت عقدة جبينها؟ أين ذهب انحناء كتفيها؟ اين اختفت لهجتها الاعتذارية المتوترة؟ كيف فجأة انتصبت قامتها وتطاول عنقها زاهياً كزنبقة حقل؟

أتركهم يتساءلون وأغرق في سكينتي وهنائي فحتى لو أجبت فما كانوا «ليفهموا»

تخبرني تلميذتي زينب أن جدها الذي ذهب لزيارة بلدته «يارون»[3] سيظل هناك ولن يعود، فأفاجئها بتعليقي الواثق: طبعاً لن يعود

يطل «جون هاورد» على شاشة التلفزيون ومن بعده جورج بوش فلا تثير طلتهما اشمئزازي ولا امتلئ غضباً ولا أصر أسناني لما يرهفون، فالنفس مشغولة بهنائها... آه لو يعلمون

أدخل مكتبي في الجامعة فتلقاني زميلتي الجزينيّة[4] «نجمه حجار»، بهية كنجمة صبح هازجة كجوقة حساسين:

منرفض نحنا نموت. أرضك والبيوت هاو إلنا يا جنوب. يا حبيبي يا جنوب

2006/8/14

حثوة تراب

قالت لي: أنا ذاهبة الى البلاد[5]، ووعدتني أن تجلب لي حثوة من تراب قريتي. طلبت مني ان أُعيد ثانية اسم القرية التي جئت منها. ابتسمت للكنتها العربية المشوبة بالاسترالية وطلبت منها ان تعيد اللفظ عدة مرات حتى استوى لفظها. تنفست الصعداء، أخيراً تمكنت من لفظ كفربرعم كما يجب

رَوان، تلميذتي المولودة في أستراليا، تذهب غداً الى البلاد، وانا المولودة تحت سفح جبل الكرمل أرحل الى بوسطن!...

* * *

ألحت عليّ الدمعة وأبت إلا نحباً كتوماً وهي تمد يدها النحيلة وتقول لي: «من تراب كفربرعم». كادت تتحول الدمعة الى مناحة لولا بروز غسان كنفاني لينهرني بواسطة «سعيد س.» قائلاً: الوطن ليس بريشات الطاووس ولا بمسكة الباب النحاسية

في المساء، عندما خلوت الى ترابي أتحسسه واستنطق ذراته، رأيتني أقول:

- لا يا أبو فايز، ما معك حق. الوطن هو هذه الريشات وتلك المسكة. هو ذرة التراب المتواضعة هذه!.. في كل ذرة من حثوة التراب هذه ملامح أجدادي، من راحوا ومن بقَوا: وجه جدتي زكية التي ماتت لاجئة في قرية الجش القريبة من كفربرعم، وعينا عميّ أنطون المملؤتان أسى على أرض أمام عينيه ولا يطالها.

في ذرة التراب هذه أتشمم عرق جدي أبو طنوس الذي تساقط فوقها وهو يسوي من مشاعها جلولاً وبيارات وبساتين تعويضاً عما حُرِمه ظلماً من ميراث والده. تراءت لي ذرة التراب هذه قامة نحاسية مديدة بسروال بلدي عتيق وزند قوية ظلت حتى التسعين تضرب الصخر وتفتته وتصنع من

المشاع إرثاً لأطفال قادمين. شممت فيها رائحة العرق الابدي الذي تساقط من فوق جبهة تلك القامة. استطعمت فيها مذاق العنب والتين الذي اقتلعوه دون ان يستطيعوا اقتلاع خصائصه المكتنزة في ذراتها. استطعمت ذاك الزيت الذي حدثني أبي عنه «أللي ما في متلو بكل بلدان العالم»، فعزيّت عمتي ام ميلاد التي حرموها من قطاف زيتونات أبيها. لا تحزني يا عمة، فالتربة لا تزال حبلى بزيتونها

بوسطن 2006

بقع فوق أفكار نعمان

نعمان لا يحب أزيز الطائرات الراعد. عندما كان صغيراً كان يهرع مختبئا بثياب أمه كلما مرت دراجة نارية «مقرقعة»، وكان أوّل من يتكوم في زاوية آمنة عندما يداهم حيهّم قصف مفاجئ.

نعمان لا يحب أن يموت، ليس لأنه يحب الحياة فقط، بل لأن موته سيحزن أمه كثيرا. عندما خُطِف أبوه ولم يعد، ظلت لسنوات تبكي. تسربلت بالسواد. وضعت منديلا أسود فوق رأسها وبدأت تهرم بسرعة حتى أنها لم تعد تحبهم. لم تعد تدلـله كما كانت تفعل من قبل ولم تعد تصنع له الأطباق التي يحبها. صارت مثل خادمة أم بشير تطبخ وتضع الأكل على الطاولة دون تعليق. دون ان ترجوه او ترجو عامر ليزيد. ظلت لسنوات لا تأكل حبة شوكولاته وحرّمت صنع الكاتو والكنافة في البيت. صحيح أنه كان يشتري كنافة وكاتو من عند «العريسي» ولكن ما تصنعه أمه أطيب. اكثر من مرة خبأ قالب الكاتوه كي لا تقدمه لضيوفها الذين يأتون على غفلة. كانت تقرص أذنه عندما يذهب الضيوف وتقول بلهجة تصطنع الغضب:

- إصحى تعيدها وإلا...
- وإلا ماذا!. (يتمتم في سره)
- , , , أقول لعامر

عزّة ايضا ستحزن. ولكن حزنها لن يكون كحزن أمه. ستندم على كل المشاجرات التي كانت تفتعلها معه. ستندم لأنها ظلمته يوم اشتكته لعامر وقالت: نعمان يدخن. كان عامر قاسياً معه يومها. قطع عنه المصروف. بقي لأسابيع يأكل سندويشته ناشفة ولا شفة ببسي. عزّة تغيرت كثيراً بعد ان تهجّروا من بيتهم الريفي شرقي بيروت وسكنوا في برج البراجنة. صارت تصرخ كلما دخل عليها

غرفتها «إطلع برّه». صارت تقضي وقتها بقراءة مجلات تخفيها تحت الفراش عندما تدخل أمها الغرفة فجأة. يوم رمى لها المجلات عن الشرفة الى الشارع قالت له: «إنشالله تموت» (ستتذكر هذا وتبكي)

لا يستطيع ان يتصور مدى حزن رنده، ولكنها حتماً ستندم لأنها كانت دائما تتباهى عليه بتفوقها في الدراسة ولا تكف عن ترديد: «طالع حمار لا تنفع لأي شي... روح كب حالك بالبحر». صحيح أنه كان يكرهها لذلك، ولكنه كان يتباهى بها كلما سأله معلم جديد عن قرابته برنده. كان ينفخ صدره ويقول بالفم الملآن:

- رنده اختي.

ولكن رنده مغرورة... دائماً تهزئه وتقول:

- أنا أخجل أن أقول هذا التيس الكسلان أخي.

ستندم على كل كلمة جارحة قالتها في حقه.

قد لا يحزن عامر كثيراً. موته سيخفف بعض مسؤولياته. عامر هذا عواطفه جامدة... في هذه السن وليس له حبيبة أو خطيبة. لا يعرف إلا الواجب. يعمل مثل الآلة. يصرف على البيت منذ استشهاد والده ولكنه يعيش في صومعته بعيداً عن همومهم الأخرى. لم يسأله مرة عن أحواله الغرامية ولا علمّه، كما يفعل الإخوة الكبار عادة، كيف يتعامل مع حاجاته الجنسية. هو لا يعرف عن أحلامه وطموحاته شيئاً. لم يغضب يوم قال له أنه تطوع مع الشباب وأنه ذاهب معهم الى حي السلم ولم يشد على يده مشجعاً. وقف مثل «ابو الهول»

تساءل!... هل ستبوح إبتسام بما كان بيننا؟!!.. هل ستحضر جنازتي؟!. هل ستجلس الى جانب أمي ورندة وعزّة تتقبل التعازي في موتي؟!... لا يظن ذلك. إبتسام تخاف من أخيها عليّ. كثيراً ما كانت تقول له مازحة كلما جاء يضمها ويقبلها «عليّ فوق الشجرة»...

سوف يصلّون على جثمانه في كنيسة مار بطرس وبولس في الحمرا. وسيقول أبو ماهر كلمات جميلة في تأبينه. عند كل وقفة له ستجهش أمه بالبكاء ولكنهم سيدفنونه في مقبرة الشهداء. أبو

عمار قال: كل الشهداء يدفنون في مقبرة الشهداء. إسلام، مسيحية كلهم شهداء. أبو عمار تحدى رجال الدين. قال لهم:

- هؤلاء صاروا مسلمين بالشهادة.

هو يحب أبو عمار ولكنه يسكت عندما ينتقده ويشتمه كوادر الجبهة الشعبية كي لا يبدو ساذجاً لا يفهم بالسياسة

سيُلفّ النعش بعلم فلسطين وسيطلق رفاقه الرصاص تحية للشهيد البطل. ستكون الكنيسة مليئة برفاقه المسلمين الذين سيسخرون من هذه الكلمات التي تقال بلغة لا يعرفون ما هي. قد يتضايق بعضهم من رائحة البخور القوية ويترك الكنيسة بسبب تلك الرائحة... قد يسخر عماد ورسمي ومصطفى من هذه الشموع الصفراء الكبيرة المضاءة في عز النهار. سيقول عماد:

- شو هالبطر!.... الناس محروق دينها بالعتمة وهم يبذرون الشموع في عز النهار... سيقول رسمي:

تعالوا نسرق هذه الشموع، كل واحدة منها تكفي مؤونة الاضاءة لمدة شهر.

حتماً سيصمت مصطفى، فالعلمانية لم تتغلغل عميقاً في عروقه بعد.

عندما سيقومون بحمل النعش ستزداد الشهقات وسيرتفع النحيب: ستصرخ أمه:

- مع السلامة يا حبيبي يا نعمان. سلّم على أبوك. وربما تغيب عن الوعي. قد تطلق أم جميل زغرودة مفاجئة كما تفعل دائما، وقد يتبعها بعض الرفاق بانشودة «يا ام الشهيد زغردي كل الاولاد أولادكي»...

كم هو جميل ومحزن موت الشهيد!. كم هي جميلة كلمات التأبين!. كم هي جميلة اللوحة الرخامية البيضاء المكتوب عليها اسمه وتاريخ ميلاده وعبارة استشهد دفاعاً عن بيروت المقاومة بتاريخ.... 1982

أحس أنه على حافة البكاء، لا بسبب ما سيصير اليه بل بسبب هذا الشجن الجميل والحزين كالموسيقى.

تساءل!.. لو أنهم علموا ما كان يجول في فكره من خواطر بين الحين والاخر، هل كانوا سيظلون يعتبرونه شهيداَ؟!. لو علموا أنه في بعض الأحيان كان يندم على هذا التطوع وعندما يشتد الخطر يتمنى أن تنتهي الحرب حتى وإن لم تنتصر الثورة. لو علموا أنه تظاهر بالمرض ليلة البارحة حتى لا يشارك بالهجوم على مثلث خلده الذي قام بالنيابة عنه رفيقه هاني واستشهد خلاله. لو علموا انه كان يحب ان يتفرج على صور النساء العاريات ويقرأ النكات الجنسية اكثر مما يحب قراءة كتب ابو ابراهيم. لو علموا انه كان يبخل عن شراء مجلة الهدف حتى يوفر ثمنها ويشتري مجلة «بلاي بوي»!

سُرَّ نعمان لأن الأفكار ليست كالثياب فهي لا تُظْهِر البقع القذرة التي تلطخها.

* * *

عندما جاء ابو مجاهد وبرفقته ثلاثة من رفاق نعمان بثياب مرقطة، لم تنهض أم عامر متلهفة لترحب أو تسأل عن نعمان بل قالت وعيناها مطرقتان الى الارض:

- لا ضرورة للكلام... لقد زارني ليلة البارحة وقال لي: وداعاً يا أُم عامر. وصّاني ألّا أحزن ولا ألبس السواد ولا أتوقف عن خبز الكنافة. قال: إن حزني سيحزنه كثيرا ويجعل موته حقيقياً...

سدني 2006

شيء يشبه «الاخضر والاحمر»

قط أو قطة لست أدري. ما أعرفه هو أنه كان يتخذ صبيحة كل يوم من سياج حديقتي «قدومية» يعبر من خلالها الى الجهة المقابلة من الحي. ولأصدقك القول، فإن مشاهدتي له كانت تتم دائماً في صباحات النهار. كان هراً ككل الهررة المدللة في هذه البلاد. شعره ناعم براق وعيناه لامعتان هادئتان. كانت قفزاته سريعة ولو أنها لا تخلو من بعض الحذر، وكان يهمّ راكضا قاطعاً الطريق الى الجهة الاخرى. قد يحلو لي في بعض الاحيان ان أشاكسه، ففي اعماقي حسد وغيرة من قطط وكلاب هذه البلاد لأسباب لن أذكرها ففهمكَ/كِ كفاية.

أعترض طريقه وأحدق في عينيه فلا تخيفه تظراتي ولا تجعله يتراجع الى الوراء، بل كان يقوّس ظهره وينتصب على قوائمه الاربع ويحدق بي تحديقة حرت في تفسيرها، أهي تحد، تحفز لصراع، أم رجاء؟ غريبة هي أعين الهررة!... لم انتبه من قبل لما فيها من عمق. ترى ألهذا قالوا ان الارواح الشريرة تسكن هذه العيون؟ لم اشعر بالشر في عيني قطي هذا. احسست بكل شيء إلا الشر. لم تكن مشاكستي له لتطول فقد كنت اتراجع امام إصراره فأخفض بصري وأدير له ظهري مفسحة له إكمال طريقه. لطالما فكرت وقلت لجليسي:

- لماذا يصر هذا الهر على القفز فوق سور الحديقة فبإمكانه أن يحاذيه... وأين يذهب؟ ترى هل هو عائد من غزوة ليلية أم متجه إلى أخرى صباحية؟

سيرة الهر كانت ترافق قهوتنا الصباحية. استراحة قصيرة من متابعة نقاشات «الجزيرة» التي تغيظ اكثر مما تثقف. ضبطني صغيري أكثر من مرة احكي بتحبب عن الهر، فانتهزها فرصة ليطلب مني موافقة على اقتناء هر صغير. صرخت غاضبة: «كله إلا الهررة» وسخين وبعيونهم سحر وشر

- ولكن...

- بدون ولكن! بكره بس تتزوج جيب على بيتك مئة هر. أما هون لا.

يتمتم لاعنا دكتاتوريتي، مهدداً أنه سيترك البيت في اول يوم يتم فيه السادسة عشرة. أشعر بوخزة. أتكون منافستي هرة؟!..

الجزيرة تعرض صوراً من فلسطين. الجرافات تقتلع أشجار الزيتون. رغم اني تربيت بالمدينة ولا أعرف عن شجر الزيتون إلا لوعة أمي على تركه مثقلاً بحمله قبل ما يقارب الستين عاماً، إلا أنني احسست وقلت لشريك قهوتي:

- أحس كأن هذه «البولدوزورات» تمشي على جسدي وتقطع أوصالي. يلوي رقبته حسرة. يهم بالكلام ولا يتكلم. أعرف ما يريد أن يقول. أعرف أنه يشعر بالذنب لأنه هنا. يتمنى أن يكون هناك. سكبت بعض القهوة في فنجانه لأحول انتباهه. كانت عيناه تلتمع بدمعة مكابرة. رشف قهوته وقال:

- «القواد» على شو بعدو بيفاوض؟

دخل الصغير يجفف يديه بحماس بمنشفة صغيرة: خالي سيأخذني معه الى «تاون هول» سأشوف حنان عشراوي. عظيمة هاي المرة لو كان في مثلها كتير كنا «ربحنا» فلسطين

- سكّر تِمّك! انت شو بيعرفك بالسياسة؟ لو كانت القصة قصة حكي كنا استرجعنا الأندلس مش بس فلسطين.

- she is great .....!!dad!....

- «الغريت» هناك مش بـ «لتاون هول» «تَبْعَتَكّ!

هذا الحوار السفسطائي يكاد يكون خبزنا اليومي. أقول منتقدة:

- ما معنى أن تعيش في سدني وقلبك وعقلك هناك!..

يصمت. وأسمعه يهمهم بعد ان أكون قد تواريت عن ناظريه:

- «... كأنك مش عارفة!... ساقونا بالشاروط مثل الجاج: بيت بيت بيت... حتى بتنا...»

كنت اهرب الى الشرفة الشرقية. أزيز الباب نبَّه صديقي الهر العسلي اللون، شعرت بذلك من ارتعاشة ذيله. لم يلتفت صوبي كأنه منهمك بأمر ما!... حجبه ظل شجرة السرو عن ناظري وانهمكت أراقب تعسر نمو شجيرات الغاردينيا رغم كل الاهتمام والمغذيات التي رفدتها بها. سمعت صوت ارتطام... تلفت. حركة الشارع عادية، سيارة صغيرة زرقاء تعبر الشارع. الشارع عريض وشبه خالٍ. لا مجال لارتطامها بأي شيء. ما سبب هذا الصوت؟ كدت أتجاهل الامر فقد بلدت سمعي معايشة خمسة عشر سنة من حرب البيروتين ولكن فضولاً غير عادي دفعني الى الزاوية الاخرى من الشرفة. من هناك، من تلك الزاوية، استيقظت في النفس انفعالات حرصت سنين على كبتها. رأيت هري العزيز ملقى فوق الاسفلت ينتفض وينتفض ثم يهدأ، وكان هر آخر يقطع الشارع من الجهة المقابلة يقعد فوق رأسه وينوح. كان نواحه لا يختلف بشيء عن نواح امي يوم جاؤوا بأبي شهيدا، بل ضحية قبل عشرين سنة. لا ادري لماذا لمعت في رأسي قصة غسان كنفاني «الاخضر والاحمر»...

سدني 2006

غاري يذهب الى المستشفى

اتّجهَ، بحكم العادة، الى المطبخ الصغير ليعد قهوته. تذكر فيما يده تمتد لتناول الحاجة، أنْ لا قهوة له هذا الصباح. الروزنامة المثبتة فوق الثلاجة ذكرته أنه التاسع من أيلول، موعده مع المستشفى، وهو أيضا اليوم الذي يحتفلون به بعيد الاب. بدعة ما استساغها يوماً حتى يوم كان له ابنة تأتيه بباقة زهور في المناسبة.

حلق ذقنه بتأن مطّول واطمأن على سلامة هيئته رغم الندوب الصغيرة التي تركتها ماكينة الحلاقة فوق بشرته. يده المضطربة هي المسؤولة عن هذه الندوب. حشا في حقيبة صغيرة بعض حاجيات لا بد منها خلال إقامته في المستشفى. لا يزال أمامه ثلاث ساعات على الأقل لمغادرة البيت. أدار جهاز التلفزيون، كان أوّل ما طالعه صورة السفينة «تامبا»[6] التي تحمل طالبي لجوء ترفض السلطات استقبالهم. أثار المشهد استياءه. هو لا يفهم كثيرا بالسياسة والاقتصاد ولكنه لا يحب هذه المعاملة القاسية لآباء وامهات دفعهم اليأس الى تحمل المخاطر للوصول الى بلد ظنوه جنة الله على الارض. تذكر الوفود الكبيرة التي جاءت الى البلاد بعد الحرب العالمية الثانية. كان يومها يافعاً وسرّه امتلاء الشوارع والمحلات بالحسناوات من كل جنس ولون، كما سره بعد حين امتلاء الاسواق بأنواع جديدة ولذيذة من الاطعمة. انتقل الى قناة أخرى فمحت صورة «إيان ثورب» بطل استراليا وفخرها في دنيا الرياضة، ما تركته الصورة السابقة من اشمئزاز. هو يحب هذا الشاب، منذ بدايات صعوده كان يقول لزوجته He is a Digger Linda. أسف لحال القرى التي ضربها إعصار الأسبوع الماضي في ولاية غرب أستراليا West Australia، ولكنه أسف أكثر لأن شركات التأمين ترفض التعويض على المتضررين. تألم لمشهد الغابات التي سوّدتها الحرائق التي

شبت في العاصمة كامبرا. عندما أطلت صورة رئيس الوزراء على الشاشة قال: Shame on you John. I will not vote for you again

قرر في اللحظة الاخيرة ان يتصل بحفيدته في الضاحية المجاورة، صحيح أنه لا يزال يتذكر بألم مشاجرتهما قبل سنوات، وما زالت ذكرى كلماتها تجعل جبينه يزداد تجعداً، لكنه الان على مفترق طرق: عملية جراحية كهذه ليست بالشأن البسيط. من يعرف الى اين سيخرج بعدها!... ربما الى خُشّة معتمة في «ركوود»!!... هزّ رأسه مستخفاً من تسرُّع الشباب، لو أنها صبرت قليلا لكان البيت الآن، بكل بساطة، لها. كلم نفسه قائلا:

- أتكون أخطأت يا غاري برفضك طلبها؟!...

كم أحبها وكم دللها. هي أيضا أحبته. لم يكن يبدو عليها أنها طماعة... كانت له تعويضا عن الابنة التي رحلت باكراً، ولكنها ككل شيء في هذه العالم تركته لتتبع «روك ستار» مخبول... هو لم يرفض طلبها لأنه بخيل، بل لأنه يصعب عليه ان يترك المكان الذي عاش فيه معظم شبابه ويذهب الى آخر لا ذكريات فيه ولا أحاسيس. آخر مرة زار قريبه «غرانت» في بيت المسنين أزعجته الرائحة المنبعثة من المكان وهيئ له ان نزلاءه واقفين في طابور ينتظرون دورهم الى المحطة الاخيرة إلى «ركوود»... كان يبدأ بتدوير الأرقام فوق القرص ثم يضع السماعة قبل الوصول الى الرقم الأخير، تماما كما يحصل في المسلسلات الدرامية الرخصية. بعد عدة محاولات تغلب على تردده وانتظر رنين الهاتف لثوان خالها ساعات سمع بعدها صوت حفيدته ترجو المتصل ترك رسالة على آلة التسجيل. وضع السماعة وذرع المسافة بين غرفة الجلوس وغرفة النوم بخطوات متكاسلة أحس معها أنه كالجزيرة العائمة لا يرتبط بأي أرض، لا جذور له ولا جسور... أعاد تفقد حقيبته. تأكد للمرة العشرين أن بطاقة الضمان الصحي ألـ «Medicare» وبطاقة ضمان الشيخوخة ورسالة دخول المستشفى في مكانها. إرتأى أن يزيد على محفظته بطاقة الإتمان. من يدري!.. قد يحتاج لبعض النقود. التفت الى الساعة المعلقة على الحائط، لم تصل بعد الى السادسة صباحاً. أغرته شجرة التفاح التي تطل من النافذة في النزول الى الحديقة الخلفية الصغيرة. شجرة التفاح هذه تزهو ببياض زهرها المفاخر كعذراء تفتحت أكمام انوثتها على حين غرة. هو يحب هذه الشجرة في هذا الوقت من السنة، يحب زهرها وعطرها اكثر مما يحب ثمرها الاخضر الصغير الذي تنافسه عليه الوطاويط. تذكر أيام كان يقف أمامها منتشياً يسأل زوجته ان تتطلع وتشاركه نشوته فيما كانت

هي ترفع نظرها لتقول باقتضاب: جميل.. ثم تعود للانهماك في قراءاتها. تألم لذكرى تلك الزوجة الفاضلة التي تركته ورحلت قبل بضع سنوات، ولكنه تألم أكثر لأنها رحلت قبل ان يعرف إن كانت فعلا قد أحبته أم انها عاشت عمرها معه بحكم الفضيلة والواجب... تمنى لو أنها لم تكن كاملة. لو أنها كانت تخطئ وتغضب وتغار وتتصرف تصرفات صبيانية. حتى أنه تمنى لو أنها كانت خانته، لربما كان رأى من خلال هذه النواقص إجابة على سؤاله.

من فوق السياج بدت شجرة اللوز في حديقة جاره وادعة كابتسامة الملائكة. أحسها غانية تبادله الابتسام. إنحنى فوق الارض واقتلع ما نبت من عشيبات طفيلية في مسكبة البقدونس التي بذرها الشهر الماضي. غداً، عندما يعود، سوف يقصها ويأخذها هدية الى جارة لبنانية تسكن على بعد بضعة امتار من بيته لتعمل منها تبولة لعائلتها. هو لا يعرف الكثير عن جارته، يعرف أن لها طفلين متقاربين في العمر يسمع تصايحهما عدة مرات في اليوم ويعرف أيضا غسيلها المنشور فوق الحبل الذي يبهره نصوع بياضه. لن يحزن إذا رفضت هديته. لا... لن يغامر فربما أسمعته كلاماً قاسياً. سيترك لها البقدونس على عتبة الباب. أحس فراغاً عندما لم يركض اليه الكلب مداعباً. كان لا بد له ان يتخلص منه فما من أحد يرعاه في غيابه.

تذكر انه لم يضع ماء كولونيا في الحقيبة. فات أوان إصلاح الخطأ فعليه أن يكون في المستشفى قبل أن تفتح المحلات التجارية أبوابها. بعد العملية قد يكلف أحداً يشتري له واحدة. فكر... ماذا لو مر عليه أحدهم وقال له «الحمدلله على السلامة»؟... لذا، فمن الواجب ان يكون معه علبة حلو صغيرة للضيافة. عاد الى المطبخ، فتّش في خزانة المؤونة. قبل ان ييأس، حظي بعلبة بسكويت نصفها فارغ، ربت على غطائها مبتهجا ودسها بين باقي الاغراض. قاربت الساعة على السابعة، لن يطلب تاكسي كما كان قد قرر ليلة البارحة، سيذهب بالباص.

- من يدري!!... ربما أُصادِف راكباً ودوداً إلى جانبي فنتجاذب بعض حديث يكون خزين الذاكرة لساعات ما قبل العملية (قال في نفسه). إن صادفني مثل هذا الراكب لن أتردد كما كنت افعل سابقاً. سأعرض عليه صداقتي وسأعطيه رقم هاتفي. حبذا لو كان امرأة...

علّق الحقيبة فوق ظهره، ألقى نظرة أخيرة على غرفة الجلوس، قطع الكهرباء عن الشقة، تأكد أن مفاتيح البيت في جيبه. أقفل الباب. عن شماله، كان جاره محنياً فوق التربة فوقف منتظراً حتى يرفع الرجل بصره عن الارض

- «هالو»، «غود مورننغ»

الابتسامة البلاستيكية الحائرة هي ذاتها... عشر سنوات ولم يزد ما بينهما على هذه الـ «هالو» والـ «غود مورننغ»، فالرجل لا يفهم الانكليزية وهو لا يفهم الصينية. انحنى فوق بوابة السور واستدار بنظره نحوه. ضم أصابعه وأشار الى صدره وقال I... go... hospital تطلع الرجل اليه ببلاهة. أعاد العبارة مرة ثانية. بتأن أكثر هذه المرة، ثم اتبعها بثالثة. تهلل وجه الرجل هذه المرة. ضم يديه إلى بعضهما، رفعهما محاذاة جبينه، انحنى قليلاً وقال: yes, yes sir...hospital وبين الاشارة والعبارة أفهمه أنه سيغيب ستة أسابيع. استطاع أن ينقل له رغبته بان يسقي له شتول الزرع في غيابه. اطمأن من تعابير وجه الرجل الودودة أنه فهم وسيفعل. إطمأن على شجيرات الورد والغاردينيا والكامليا. تابع سيره ليأخذ باص 410 الذي سيوصله بعد 35 دقيقة بالتمام الى بوابة مستشفى بانكستاون.

سدني 2006

الحلم أجمل

لست أدري تماماً متى بدأ يغادرني شعور الاطمئنان والرضى بما قسمته لي الحياة. ربما بعد بروز ظاهرة بولين هانسون العنصرية[7]. ربما بعد كارثة سفينة طالبي اللجوء تامبا والطريقة البشعة التي تعاملت بها أستراليا مع هؤلاء المساكين[8]. لا لا إن ما ذكّى هذا الشعور أمر ضيق ومحليّ ظهر مؤخراً في منطقتي، بانكستاون، وأطلقوا عليه اسم Lebanese Gang[9].

تغيرت أستراليا كثيراً في العقدين الأخيرين. جارتي بدأت تتضايق عندما يصخب أولادي بالحديقة الخلفية وتصرخ بأعلى صوتها: Bloody wog. صاحب الدكان في الجوار يطأطئ رأسه متحاشياً الرد على تحيتي عندما أدخل محله. وزوجتي تشكو غاضبة من النظرات المريبة والتعليقات العنصرية في رحلتها من وإلى مدرسة الأولاد.

والدي المنحاز لحزب العمال ولغولف ويتلام[10] على وجه التحديد. يقول:

لا يا غبي! تغيرت أستراليا بعد فوز حزب الأحرار. لولا هاورد ما كانت بولين هانسون ولا كانت تامبا ولا ضرّاب السخن. (ويزيد): بنوها الكبار وخرّبوها الوزاويز. خضر، عمال، أحرار، حط بالخرج... كلهم وزاويز

- يا «دادي»، الناس ما بدها كبار. بدها وزاويز.

- لا لا حبيبي، الوزاويز بنوا ثقافة الوزاويز. خوفوا الناس من طالبي اللجوء. وخوفوا الناس من الهندي والباكستاني والأندونيسي. حرضوا على العرب. قزموا أستراليا. بعد أن كانت مأوى لكل خائف وجوعان ومظلوم ومضطهد. اصبحت شواطئها قبراً لهؤلاء المساكين[11]

* * *

وُلِدْتُ في استراليّا لأبوين عربيين. هجين!..... لا أُحسُّني هكذا، فأنا في مظهري وسلوكي اليومي وأحلامي البسيطة، أُسترالي بامتياز. فقد أورثني جدي لأبي بشرة بيضاء وشعراً أشقر وعينين زرقاوين. وتربيت في المدرسة والنادي والتلفيزيون على ما تربى عليه توم وباتريك وجون. أحب الرياضة بجنون واتحمس لفريق «البولدوغز». في المواسم أرفع علمهم فوق سيارتي وأجوب شوارع سدني مطلقاً هتافات التشجيع والتحية لهم. أحضر سباقات الخيل وأراهن عليها. أسافر من ولاية لولاية لأشاهد سباق الدراجات النارية «البايكس» وأحلم بأن أصير بطلاً في سباق السيارات فهذه الهواية تستحوذ على عقلي.. ككل استراليّ أبيض لا أرهق نفسي بالعمل، وفي عطلة نهاية الأسبوع أسهر إلى ساعة متأخرة في المقهى الليلي، أو أذهب مع شلة من الاصدقاء إلى الحانة المجاورة نشرب البيرة ونتسكع في الجوار.

لا أنكر أن في دمي بعض مشرقية: فأنا أحب أن يكون عندي سيارة فخمة أتباهى بها، وبيتاً جميلاً في الضواحي الراقية شمال سدني. أحب أن أزور المطاعم الفخمة وأنام في فنادق الدرجة الأولى شابكاً يدي بيد امرأة جميلة تلبس الماركات الغالية والجواهر الثمينة. غير أن هذه المشرقية لم تكن إلا كفقاعات صابون تظهر وتختفي دون ان تترك أثراً يذكر.

تزوجت على عمر صغير نسبياً، فمن أحببت لا تذهب إلى الفراش مع الرجل قبل الزواج. علّقت المخلاة باكراً على حد قول جدي «أبو نعّوم». معه حق. فرحم زوجتي خصب وجسدها شهي أتحفتني بثلاثة أبناء قبل مرور خمس سنوات على زواجنا. تكاليف تنشئة الأطفال في هذا البلد عالية نسبة لمدخولي. مطالب لا تنتهي: دروس في السباحة، دروس في الموسيقى، دروس في الدراما. دروس، دروس دروس... وزوجتي تتأفف.

- طول النهار ركض ركض من بيت معلمة الموسيقى إلى بركة السباحة إلى صف الموسيقى والدراما، الى طبيب الصحة، إلى طبيب الأسنان..

- إرحميني من تذمرك. لست الوحيدة التي تخدم أولادها. كل الأمهات هكذا.

- كل الأمهات هكذا!... لا حبيبي غلطان. غلطان كتير.. جارنا «باتريك» أخذ إجازة أبوة بعد أن ولدت زوجته طفلها الأخير. جارنا «باترك» يطبخ. يغسل. يكوي. يأخذ الأولاد إلى المدرسة وإلى دروس الرقص والموسيقى والسباحة.

تمنيت أن أكون مثل جارنا باتريك أستطيع ان آخذ إجازة بدون راتب أو أعمل بدوام جزئي، فأنا أحب أن أقضي وقتاً مع أطفالي وأراقبهم وهم يكبرون. ولكن إن فعلت، فمن يدفع قرض المنزل وقرض السيارة وقرض العطلة الذي استلفته السنة الماضية لآخذها في عطلة هي الوحيدة منذ زواجنا؟!...

زاد الطين بلة عندما فاجأتني زوجتي بحملها الرابع.

- طفل رابع!... حملوه عنزة ضرط. (قلت في سرّي)

طفل رابع!... لا يتوقف الأمر عند زجاجة الحليب والحفاضات وما شابه. طفل رابع معناه بيت أكبر. إما الانتقال إلى بيت آخر، أو بناء غرفة في البيت الحالي. كلا الأمرين بحاجة إلى مال. يعني قرض إضافيّ!.

وشوشني رفيق السوء «أندرو»:

- جارتنا «وندي» على خلاف مع زوجها. تريد أن تبيع مطعمها للأكل السريع بسعر رخيص جداً.، بثمن البضاعة فقط.

- بدون خلو!... (قلت مستغرباً)

- بدون خلو... قلتُ لكَ... هي تريد أن تتخلص من كل ما يربطها بزوجها

عاينّا المحل عن بعد. لاحظت أنه لا يفتح بدوام منتظم.

- هذا لأنها مهملة. لا تحب أن تتعب نفسها. مهووسة بلعب البوكر ماشين. (قال أندرو). انت إذا اشتريته وأحسنت إدارته در عليك ذهباً.

وتحمستُ للمشروع

- الله يبارك بقرش التجارة (قالت زوجتي).

- الحياة بدها خفيّة زاد «أندرو». عشرة ألف دولار فقط.

- ومن أين العشرة آلاف يا رجل؟ الديون راكبتني ركب

- ولو!... شو يعني عشرة آلاف؟ والدك ما شاء الله أحواله جيدة؟

- والدي!.. لا لا!... لن آخذ منه إلا الإهانة هذ المرة.

- لا تهتم حبيبي. مبلغ بسيط استدينه من أخي (قالت زوجتي).

هاج والدي وماج.

- يا حمار!..هذا محل مكسور.

- «قول» مبروك يا ابو مايكل... دعني أجرب حظي.

- تريد أن تورطني بديونك مرة أخرى؟

- لن أورطك هذه المرة سينجح هذا المحل، وسيصبح بداية لسلسة محلات كثيرة «أقبر معها الفقر» وأصبح اسماً كبيراً تعتز به

أخذ والدي نفساً طويلا من نارجيلته اللبنانية بامتياز. زفره في وجهي وقال: إسمع واتعظ أيها الحالم.

كان يا ما كان في قديم الزمان، كان هنالك شاب يعمل راعي غنم عند رجل غني. كان الرجل يعطيه أجره مقداراً من السمن كل أسبوع. اشترى الراعي جرة وعلقها في سقف الكوخ الذي يعيش فيه وصار يضع السمن فيها، ثم راح يحلم:

- غداً عندما تمتلئ الجرة، سأذهب بها الى السوق وأبيع ما فيها من سمن وأشتري بثمنه نعجة. والنعجة ستلد لي نعجة أخرى والنعجتان نعاجاً... إلى ان يصير عندي قطيعاً يدر عليّ جراراً من السمن، فأبيعها وأشتري بثمنها داراً كبيرة وأستأجر راعياً يرعى غنمي، ثم أتزوج امرأة جميلة فاضلة فتنجب لي ابناً... سأربيه تربية راقية وأرسله الى أحسن المدارس ليتعلم الأدب والطاعة، وإن عصاني ضربته بهذه العصا. رفع عصاه في الهواء فأصابت الجرة وكسرتها واندلق ما فيها فوق رأسه وذقنه وثيابه.

* * *

تمت عملية الشراء. بحماس. غسلنا (أنا وزوجتي) البلاط والسقف والارض والمقاعد والطاولات. أصبح المحل يبرق برقاً. علقنا يافطة تقول: «بإدارة جديدة». وضعنا إعلاناً في الصحيفة المحلية. وزعنا مناشير بأسعار مخفضة على البيوت والمحلات المجاورة. التزمنا بساعات عمل طويلة ومنتظمة، ووظفْتُ طالبة رشيقة بدوام جزئي تقوم بخدمة الطاولات أثناء انشغال زوجتي مع الأولاد. وقعدنا ننتظر. كنت أرقب حركة الشارع وأتحفز للنهوض كلما رأيت رجلاً او امرأة تسير باتجاه محلي. وكنت أتراجع خائباً عندما يتخطاني الزبون المحتمل ويدخل الى السوبرماركت المجاور او محل القهوة في الجهة المقابلة. بدأ اليأس والملل يتملكني، ولكنني كنت أتجالد كلما مرت صورة «أبو مايكل» في رأسي. سأصبر حتى أنجح. لا أستطيع ان أتحمل ملامته مرة أخرى.

* * *

الملل يقتلني. أقعد كصياد جلود يرمي سنارته في الماء وينتظر حتى تعلق السمكة. وصنارتي لا تصيد إلا القليل. يتملكني الغيظ والحسد وأنا أرى الناس يمرون من أمامي قاصدين «ماكدونالد» المجاور.

- أناس جهلة!. لماذا يفضلون ماكدونالد علي، انا أرخص منه وسندويشاتي صحية وطازجة؟!.. شعب قتلته العادة، لا يميّز بين الجيد والرديء.

لا أستطيع دفع الديون. والمدخول لا يسدد مصاريف المحل. ماذا أفعل!... أأستمر في المكابرة؟... أألجأ إلى أندرو ليجرني إلى المتاجرة بالممنوعات؟!... وأحسّتْ أم مايكل بمأزقي. قلب الأم دليلها كما يقولون.

- والله يا رجال هالصبي غلبان.. حرام نساعدو شوية

- ... أختك على... أخت هالصبي، ما راح ساعدو!.. خليه يتربى

- وإلك قلب تشوفو مهموم وتقعد ساكت... والله حالتو تصعب عالكافر.

ذات مساء جاءني «أبو مايكل» قائلاً:

- كيف الشغل؟

بقيت صامتاً... اكمل قائلاً:

- خذ. ورمى بعصبية شيكاً على الطاولة وقال يَسِّر أمورك.

خرج قبل أن أستفيق من ذهولي... كان قد رهن البيت لينقذني من ورطتي

واشتعل الحلم.. أصابتني الخسارة بهوس الحلم. لن أعود إلى الوظيفة. لماذا يذهب ابناء أخي مايكل إلى مدرسة خاصة ويذهب أولادي الى المدرسة الحكومية؟ لماذا يقود مايكل سيارة لكسس واكتفي أنا بالسوزوكي. لماذا لزوجة مايكل سيارة خاصة بها وأنا وزوجتي نتقاسم سيارة واحدة؟ لن أكون أقل من مايكل بشيء.

سأعطي نفسي الوقت الكافي لأجد المصلحة الناجحة. انضممت إلى رتل الطفيليين العائشين على نفقة دافعي الضرائب، وصارت وظيفتي البحث عن مصلحة جيدة. وضعت لنفسي برنامجاً يومياً يبدأ برياضة المشي في المنتزه القريب. في هذا المنتزه رأيت أستراليا التي أحب: أستراليون من مختلف الخلفيات، هنود، باكستانيون، إيرانيون، كرواتيون، مقدونيون، صينيون وغيرهم كثير. وفيه سمعت عددا لا يحصى من اللغات، ميزت بعضها وفاتني البعض الآخر. الآن عرفت أن لا خوف على أستراليا لا من بولين هانسون ولا من غيرها. لن يستطيع أحد أن يغيِّر هذا النسيج الجميل. هذا الوجه العالمي للهوية العابرة للأجناس والألوان والطوائف.

معظم رفاقي في رياضة المشي ودودين. يسبقونك إلى تحية الصباح حتى ولو كنت تصغرهم سناً. تغيظني قلة يتجاوزونك متجاهلين، والأنكى منهم اولئك الذين لا يردون تحيتك. في هذا المنتزه دخلت المرأة على الحلم وزادته اشتعالاً... كانت تسبقني ببضع خطوات فرأيت نفسي احدق بتكويرة الفخذين المكتنزتين. اثارني النمش الكثيف الذي يغطى كل جسمها. سرحت بحلم شبقي جميل: أعريها أمرر لساني حول الدوائر الداكنة التي تتبعثر حول حلمتيها. تستجيب لمداعباتي ولا تتمنع عندما أفك أزرار قميصها. أرشف بشفتي اللاهبتين كل ذرة في المساحة التي كشف عنها عري القميص. أتوقف عند السرة واروح امتصها كعلقة لزجة اضناها الظمأ. كنت أهم بفك فتحة السروال وكلي فضول لأعرف إن كان هنالك من نمش عندما ناداني جاري «غاري» مهللاً فرحاً بانضمامي الى نادي المشائين. صارت نزهة المشي نزهة لخيالي النشط. سواء كانت نمشائي في المنتزه أو لم تكن. أتخيلها تتلكأ في سيرها حتى أحاذيها. حتماً هي امرأة تعسة. مع كل هذا النمش، لن تحظى

بحبيب يروي ظمأ شهوتها. لا. لا. بل لها صديق تافه خامل تصبر على تفاهته وخموله كي لا تكون وحيدة. هو يقضي نهاره يشرب البيرة ويشاهد التافه من المسلسلات التلفزيونية وإذ تعود من عملها ويكون السكر قد أطفأه، ينهال عليها بالسباب والشتائم والاتهامات حتى إذا استفزه سكوتها أو الرد عليه، صفقها بأقرب صحن او حاوية بيرة فارغة تطالها يده. سأغير حياتها سأجعلها خليلة وابني لها عشاً بعيداً عن هذه الضاحية الفقيرة البائسة. شقة على البحر تطل على جسر سدني والأوبرا هاوس. سأضاجعها تحت ضوء القمر وسيزيدني انعكاس ضوئه على الدوائر النمشة شبقاً. سأجعلها تتألق بالمتعة حتى تمسي أجمل الجميلات. هزتني زوجتي بعنف لآخذ الصغير إلى الحمام. تطلعت بوجه زوجتي النقي كمرآة مصقولة وتمنيت لو أنها تصاب بعدوى النمش الجميل.

* * *

وجدتها!.... مقهى في وسط البلد. على تقاطع شارعين مهمين. على يمينها بناية ضخمة فيها عدة مؤسسات ومصالح حكومية وعن شمالها مخرج لمحطة قطارات عامرة. عاينتها عن بعد. ظللت لمدة أسبوع أقف بعيداً وأحصي عدد الداخلين والخارجين. هؤلاء الذين يجلسون حالمين ساهمين او قلقين على الطاولات، وأولئك اللجوجين الذين يأخذون قهوتهم أو سندويشتهم ويغادرون مسرعين. هي مصلحة ناجحة قلت في نفسي.

- وبحماسك وعقلك العبقري ستزيدها نجاحا قالت زوجتي. ولكن صاحبها يطلب مبلغاً كبيراً بدل إخلاء. كيف يمكنني الحصول على هكذا قرض؟ لم يكن أمامي إلا «أبو مايكل». أخذته بالحيلة هذه المرة.

- أريدك أن تأتي معي لنعاين هذا المحل يا «أبو مايكل»

- محل مرة أخرى ايها المقامر الخاسر؟..

- لن أقامر هذه المرة يا «ابو مايكل». لن أعمل إلا حسب مشورتك. أريدك ان تعاين انت المحل فإن أعجبك اتكلنا على الله وإلا فيا دار ما دخلك شر.

المحل ناجح ما شاء الله. مردوده وفير. اشتريت سيارة لكسس جديدة وسيارة مربعة الدفع لزوجتي لتتسع لها وللأولاد. السنة القادمة سأسجل الأبناء في مدرسة خاصة وسأجلب لهم اساتذة خصوصيين ليعلموهم الموسيقى والرقص والفنون في البيت. وبعدها أشتري بيتاً في الضاحية

الشمالية (North Sydney) في مكان يطل على الـ «دارلنغ هاربر» والـ «أوبرا هاوس». وبعدها سأوسع تجارتي حتى اصبح مليونيراً وأحقق كل أحلامي في الترف والمرأة.

* * *

بضعة أشهر فقط وأصبت بالتعب والملل. ساعات دوام طويلة وذهن مشغول دائماً بتوافه الأمور: هذا العامل تأخر. ذاك الزبون تذمر. تلك السيدة لم يعجبها مذاق القهوة.... لا وقت للاسترخاء والاسترسال بحلم جميل. افتقدت رياضة المشي الصباحية وسهرة الرفاق في الحانة. حتى قهوة الصباح صرت أتناولها وأنا أحلق ذقني.

أريد حلاً. أريد حلا. لا أستطيع أن استمر على هذا المنوال.

- شد حالك قال أبو مايكل. أنت شباب والله يبارك بهمة الشباب. إذا كنت ستكسل منذ اليوم فماذا تركت لسنوات الكهولة؟

أستعين بعامل او عاملين إضافيين (قلت)

- «اللي بيحضر على عنزتو بتجبلو توم» (قال أبو مايكل)

- ....

أشهر قليلة وتقلص الدخل. لم يعد يكفي لسد مصاريف العائلة والمحل وأقساط السيارات.

- إصرف بعض العمال (قالت زوجتي)

- لن يفرق الأمر كثيراً. المسألة الأساسية ان المدخول تقلص.

- طبعاً سيتقلص. الكلب الذي يركض لنفسه غير الكلب الذي يركض لصاحبه (قال أبي).

- والحل؟

- عد على رأس محلك. لا تتركه للكلاب يتناهشونه

- وأعود للعمل «كثور الساقية؟!. إنه عمل قاتل يا «ابو مايكل». لا استطيع الاستمرار به. لا أستطيع.

- عد إلى الوظيفة إذاً

- وأتخلى عن حلمي؟ وعن سيارة اللكسس والفور ويل درايف؟ وتعود هي إلى التأفف؟ وأعود أنا لأحسد مايكل؟ (قلت في نفسي)

- بل تعود إلى نزهتك الصباحية وخيالاتك الممتعة بنمشائك. تعود إلى ترف الحلم ترسم به عالماً على مزاجك...

حزيران/ 2015

عقدة مايكل

لا أتذكر تماماً متى تملكني ذلك الحلم بالمجد والثورة. لا أعي الحياة إلا وأنا أحلم في أن أكون صاحب ثروة وجاه تتجمهر حولي المذيعات والمذيعون لالتقاط صورة أو حديث. وأراني انتفخ غروراً وإعجاباً بذلك الفتى العصامي الذي صرته وغطّى على المشاهير كـ «روبرت مرودوخ» و«بل غيتس» و«تري وب» وغيرهم. كنت أرى نفسي صاحب شركات ومصانع تنتشر في كل ولايات أستراليا والجوار: «غنيا الجديدة»، «نيوزيلاندا»، «أندونيسيا» و«ماليزيا» وهلم جراً. وقد يشط بي الحلم فأرى شركاتي تنافس أكبر الشركات الأمريكية والأوروبية أيضاً. وتراني صرت أفكر بما سأفعله بعد التخمة بكل تلك الملايين التي سأُحصّلها وكيف سأتهرب من الضرائب.

- تتخذ لك عشيقة جميلة، رشيقة، غضة، شبقة، مرحة، طليقة، لا تقيدها قيود. تلبسها أغلى المجوهرات. تطير بها من بلد إلى بلد، تقيم معها في أفخم الفنادق في باريس ولندن ونيويورك وفينا. تتمرغ فوق جسدها الغض في أجمل الشواطئ: الريفيرا، الباهاما، اليونان، المكسيك. مرة هي شقراء نحيلة وأخرى سمراء مكتنزة الردفين أو شديدة السمرة بشفتين ناضجتين تنضحان شهوة ودعوة .. وإذ تتخمك المرأة؟

- تتبرع للجمعيات الخيرية، ترسل إعانات للجائعين في أفريقيا، تبني مستشفى في غزة، تؤسس مدارس وحضانات في مخيمات اللاجئين، عين الحلوة وغيرها، تتبرع لبناء جامع في طرابلس وكنيسة في الإسكندرية... وتتصدر صورك الصفحات الأولى من أكبر الجرائد والمجلات الأسترالية والعربية وتحتها بالخط العريض: «المحسن الكبير سامي حلوم».

- تؤسس حزباً سياسياً. بمالك وجاذبيتك تستميل الناخبين وتتفوق على أكبر حزبين في البلد: العمال والأحرار.

هل كانت هذه عقدة عظمة موروثة؟ ربما!... إذ قد يكون اسم جدي الأكبر سالم حلوم هو تحوير للفظة حالم. هل إنّ السبب هو توبيخ والدي المستمر لأني لم أكن على قدر طموحه في تحصيلي المدرسيّ؟ هل كانت غيرة من أخي الأكبر بِكْر والديّ وفخرهما؟!

- مايكل حصل 97 % في شهادة الثانوية العامة الـ (HSC). مايكل أخذ منحة من الجامعة. مايكل مدير أكبر ماكدونالد في سدني. مايكل- الله يرضى عليه- يدفع قرض البيت والسيارة. مايكل يقدر تضحياتي مايكل.. مايكل.. مايكل.. على لسان والدي في كل مجالسه. وكانت والدتي تهرع إليه كلما عاد من عمله. تدور حوله ككلب يطلب ود صاحبه ورضاه ثم ترشقه بالعروض:

- أحضِّر لك الغدا أو تأخذ حمام اولاً؟ أين تريد أن تأخذ طعامك؟... على الشرفة؟ على طاولة الصفرة؟ قُدّام التلفزيون؟ طابخة كذا وكذا. هل يعجبك؟ أحضرلك شي ثاني؟ وقد تصرخ بأعلى صوتها «يا رنده إعملي قهوة لأخوك بسرعة».

في الثانوية العامة الـ HSC لم أحصل على معدل يخولني دخول الجامعة. أنا لم يزعجني الأمر، فالجامعة ستؤخر بدء مشروعي الحلم. ولكنه أَغضبَ والدي فكال عليَّ كل السباب واللعنات الموجودة في القاموسين العربي والأسترالي.

دبّر لي أخي مايكل وظيفة في إحدى محلات ماكدونلد. لم أرفضها. هي حبة في حقل الذرة قلت في نفسي. أجمع ما يكفي دفعة أولى لشراء محل وبعدها يصبح المحل محلات، وهكذا إلى أن أُصبِح صاحب سلسلة واسعة من سلاسل ماكدونلاد... كنت أرى نفسي مفتاحاً من أهم مفاتيح هذه الشركة العملاقة. أُدعى إلى اجتماعات الفرع الرئيسي في نيويورك وأدلي باقتراحاتي وملاحظاتي حول تحسين العمل وزيادة أرباحه، والمدراء من كل الفروع يصفقون استحساناً وإعجاباً بعبقرية هذا الشاب الأسترالي ذي اللكنة الإنكليزية المضحكة. سأصر على لكنتي الأسترالية. لن أقلد الأمريكان، فالمتفوقون يقلَدون ولا يقلِدون

يبدو أنني عشت حلمي أكثر من اللازم. كنت لا اتواضع أمام رؤسائي ولا أتلطف مع أقراني وزملائي. تحملوني في بادئ الأمر اكراماً لأخي، وغرني هذا التساهل فرأيت نفسي أكبر من هذه الوظيفة ومن هذا المحل. رأيت نفسي ديكاً فصيحاً في زريبة دجاجات غبيات يحلمن بحقل ذرة.

- يا ولد (قال أبو مايكل) اشتغل بالمقصقص حتى تلاقي الطيار

- الخنافس فقط يرضون بالمقصقص. الصقور يحلقون خلف الطيار.

تحفّز أخي مايكل للكلام فقاطعته بعصبية:

- قل إنك تغار مني. قل إنك تخاف أن يسبق نجاحي نجاحك فأحصد عنك المديح والإعجاب وأكلات أم مايكل المفضلة.

وفبما هو يهم تاركاً المكان، رمقني بنظرة ملتبسة لم استطع تفسيرها: أهي إشفاق!.. احتقار!... وتركت العمل... أسبوع يمضي وآخر يأتي وأنا سجين غرفتي أقرأ صحف سدني على أنواعها: «سدني مورننغ هيرلد»، «ترايدنيغ بوست»، «فايننشال رفيو» وغيرها. قرأت كل إعلاناتها المبوبة مرة واثنتين وثلاث ولكنني لم أحظَ بما يرضي غروري. قصدت الانترنت، وبعد بحث مطوّل، عثرت على ضالتي: «مطلوب شريك لمحل لبيع الدراجات النارية Bikes بهدف توسيع التجارة وإنشاء فروع في جميع أنحاء أستراليا. الرجاء الإتصال على....

أنا مولع بالبايكس وأعرف عنها الكثير: أنواعها، أسعارها، سباقاتها، مكانيكها والزبائن المحتملين لشرائها. طرت فرحاً بهذا الإعلان ورحت أتقافز وأفرقع أصابعي وأدندن طرباً «إجت والله جابها، وما يجيبها إلا صحابها.» اتصلت بصاحب الإعلان. كان رجلاً (من أصول أرمنية). في عينيه شرود الشعراء الحالمين. هو أيضاً مولود في أستراليا. هو أيضاً له والد صارم ويريد ان يصبح اسماً كبيراً ليفقأ عين والده الذي يتباهى عليه بنجاحه وعصاميته. وَعَظَ وما زال حتى ملّهُ الوعظ: قصة حكاها ويحكيها على مدى عمره في أستراليا

- جئت الى هذا البلد في منتصف الستينات وأنا لا أعرف من الإنكليزية إلا: Good morning, thank you. اشتغلتُ بأحقر المهن وأخطرها: حمّال في مناجم الحديد والفحم في قلب الصحراء القاسية. عامل تنظيفات في محطات القطارات. صبي ميكانيك عند أشد المكانكيين قسوة وفظاظة، وصبي دكان في محلات بيع السندويشات كان آخرها في ماركفيل Marckville حيث نسبة القادمين من لبنان وتركيا وسوريا كبيرة. كنت عندما أوصل الطلبات الى الزبائن أدردش معهم. كانوا يتأففون من قلة التنوع ويتحسرون على سندويشات بلادهم بنكهاتها الطيبة اللذيذة كالفلافل والسجق والبسطرما. ذات يوم، قدحت في ذهني فكرة: جرّب حظك يا انترانيك. إعمل على

هذا الخط. من يعلم!... ربما قبرت الفقر. وهداني حدسي إلى البسطرما التي كانت والدتي بارعة في صنعها واورثتني هذه البراعة. عرضت فكرتي على صاحب المطعم. تخوف في بادئ الأمر

- سلعة جديدة وغريبة على الذوق الأسترالي يا أنترانيك ألأسترال لا يحبون الأطعمة الحادة الرائحة والمذاق. أنا لا أحب المغامرات وأكره الفشل قال الرجل الطيب الذي كان يحبني ويثق بي كثيراً ولا يريد ان يردني خائباً فقال بحذر:

- نضعها على لائحة الطعام ونقدمها فقط عند الطلب إذا كان هذا يناسبك.

- قلت بل نقدمها مجاناً على سبيل التذوق ولمدة محدودة. وأتكفل أنا بمصاريفها. ضرب الطاولة براحة يده وقال: عظيم هيا بنا great! Let’s go

حالفني الحظ واستحسن الزبائن سندويشات البسطرما. في غرفة جانبية صرت أعد البسطرما وأبيعها للمحلات المجاورة. تضايق الجيران من الرائحة واشتكوني الى الشرطة. غُرّمتُ بخمسين دولاراً قضت على كل مدخراتي. ساعدني أبناء الحلال ممن يجيدون الإنكليزية في استخراج رخصة من البلدية لإنشاء مصنع للبسطرما. وفي أقل من خمس سنوات طارت للمصنع شهرة في كل سدني وضواحيها. وانا الآن أموّل كل أستراليا بالبسطرما. عندي فروع بكل الولايات. مرت عليّ ظروف صعبة. أكثر من مرة باغتتني اللصوص وسرقوا المعدات. أكثر من مرة رفض البنك أعطائي قرضاً لأوسع تجارتي. نافستني محلات البيتزا ومحلات اللحوم الباردة. كنت أعمل 18 ساعة في اليوم سبعة أيام في الأسبوع لأوفر أجرة عامل. يا خسارة لا أحد من أولادي «طِلِع متل أبوه». جيل خايب... مشغول بمتع الحياة الرخصية: نوادي ليلية ونسوان وسباقات خيل وهلّم جراً.

طلب مني نيكولاس 150 الف دولار مقابل شراكتي له في المحل. رحت إلى والدي وقلت بلهجة تقريرية حاسمة:

- أريد أن تضمن لي قرضاً. كفالة شكلية. على الورق فقط. أنا ساتكفل بالسداد.

- لست مقتنعاً بهذا العمل (قال). انت لا زلت صغيراً على تحمل هكذا مسؤولية. وهذا البيت الذي نملكه هو «الحيلة والفتيلة». لا أستطيع أن أخاطر وأضعه مقابل القرض.

- come on dad be fair لو ان مايكل طلب منك هذا الطلب لكنت نفذته بدون أي كلمة

- آي نعم!... كنت نفذته بدون أي كلمة، ولكن ليس لأني أحب مايكل أكثر منك، بل لأنك إنسان مغامر ومتهور وحجرك طايش

- «يا رجال أعطيه» فرصة (قالت الوالدة)

- هاليلويا... رائعة يا أم مايكل!. وهاي بوسة على هالكلام الحلو. «مامي»... كنت أظن انك لا تحبين إلا مايكل.

- هذا لأنك ضاج وصاخب ولا تسمع لغة الصمت التي هي لغة الحب الكبير.

* * *

وبحماس ما بعده حماس جددنا المحل: واجهة جذابة، بضاعة جديدة ومتنوعة. اشترينا عدداً من الدراجات النارية. أصبح المحل يملأ العين ويضاهي أحسن المحلات في سدني: ماركات شهيرة وموديلات متنوعة وأسعار مهاودة وفيه خدمة صيانة أيضاً.

شهر يمر وآخر يأتي والسوق راكد. «الفواتير» تتراكم: إيجار المحل، الكهرباء، الماء، البلدية، التأمين... الدخل لا يغطي التكاليف. تحملني يا «ابو مايكل». إدفع القرض هذا الشهر، ثم الشهر الذي يليه والذي يليه... إلى أن طفح الكيل بـ «أبو مايكل» وقال: هذا محل خسران. شوفوا شي غبي يحملو عنكم

- معك حق عمّو. حظنا سيء. (قال شريكي)

- القصة ليست قصة حظ. انتم متهورون، مغروررون تريدون أن تصيروا أغنياء بسرعة وهذا شيء لا يجوز. طلوع السلم درجة درجة. البلاد تغيرت. الحيتان الكبيرة أكلت السوق ولم تترك للحيتان الصغيرة إلا الفتات.

- خدعتني يا نيكولاس. أوهمتني عكس ذلك. ورطتني في تجارة كنت تعرف سلفاً أنها كاسدة

- خدعك جشعك وغرورك يا سام.

- لا فائدة من هذه الاتهامات (قال والدي) ونيكولاس لم يضربك على يدك لترضى بشراكته. انت مغفل وهذه ضريبة غبائك.

أعلنا عن بيع المحل في كل الصحف المحلية العربية والأسترالية والصينية. وضعنا ملصقات على أعمدة الكهرباء. ووزعنا منشورات على جميع البيوت في المنطقة. خفّضنا السعر أكثر من مرة، وقعدنا ننتظر رحمة الله. شهر يمر وآخر يهّل وما رزقنا إلا بزبائن آتين للفرجة أو للشماتة. بعد مضي سنتين اقفلنا المحل، واضطر والدي الى رهن البيت لتسديد الدين.

أصابني اكتئاب شديد. كنت أقضي طيلة النهار نائماً وفي الليل اتسكع في البارات وشوارع المدينة

- إنهض بلا دلع. «روح» فتش عن عمل. حصل مصروفك على الأقل.

قلت والمرارة تعتصرني

- مصروفك!. هذا رأيك بي يا «أبو مايكل؟!.. أنت لا تعرف قيمة ابنك يا «أبو مايكل». ابنك أسد وصيده سيكون صيد أسود لا صيد ثعالب.

- أنت أسد أنت!... والله ما أنت إلا كلب يعوّي على القمر.

أكره هذا الرجل الذي لا يجيد إلا الملامة والسباب والصوت العالي. في الصباح كنت أرى خمسين دولاراً على المنضدة بجانب سريري.

- قلبه طيب هذا الختيار (أقول في سري). أركض نحوه. أطوق كتفيه من الخلف. يتململ منزعجاً. يرشقني بسيل من الشتائم. وفيما هو يحاول أن يفك نفسه من بين ذراعيّ، أطبع قبلة مجلجلة فوق صلعته.

- روح بلا «بربكة»

- لأ بدي أتبربك. وحياتك يا أبو مايكل عن قريب ستفتخر بي أشد الفخر. سوف ترى الناس يشاورون عليك ويقولون: هذا والد سام حلوم صاحب سلسلة شركات حلوم لشراء وبيع السيارات في أستراليا ودول الباسيفيك.

قدحت عيناه بشرر غاضب... تناول أقرب منفضة سكائر ورماني بها. لولا أني تفاديتها بحركة غريزية، لكنت الآن إما في مقبرة «روكوود»، أو أرتع عاجزاً على كرسي نقّال.

سدني 2014

نصيب

ثلاثون سنة في جلباب جدتها أم محمود وما أقنع جلبابها أي عريس فقررت استبداله علّ وعسى.

قررت ان تكون أسترالية. تخلت عن الثوب الأنيق والكعب العالي ولبست السترة الرياضية وحذاء الركض الخفيف. حرصت على شراء جريدة «الديلي تِلِغْراف» يومياً وحرصت على تأبطها بشكل بارز في غدوها ورواحها.

حزمت أقراص وأشرطة عبد الحليم حافظ وعمرو دياب ونانسي عجرم في كيس نايلون وركنتها في زاوية مهملة. اشترت أغاني «ألتون جون» و«ريكي مارتن» و«فرانك سيناترا» وتركتها تصدح في السيارة وفي أرجاء شقتها الصغيرة الراتعة مع مثيلاتها، في ضاحية شعبية من ضواحي سدني.... ألقت اقلام الكحل السوداء وأصابع الروج الصارخة في سلة المهملات وتركت شعرها يتهدل دون تصفيف فوق كتفيها... نظرت لنفسها في المرآة وقالت:

- ألف داهية بسميرة الـ «ووغ». كوني أسترالية عن حق وحقيق، (قالت لها الصورة التي طالعتها في المرآة) فانصاعت لأوامرها. اشترت كلباً ابيض جميلاً مجعد الشعر وصارت تأخذه في نزهة كل صباح وترسله الى مركز العناية مرة كل شهر كي يقلموا له أظافره ويقصّوا له غرته التي تنسدل بدلال فوق حاجبيه. كفت عن شرب القهوة العربية الثقيلة وصارت تشرب الشاي بالحليب. استعاضت عن سندويشات الشيش كباب باطباق «فيش آند شيبس». لم تعد تقصد صبحيات مروى وليلى واعتدال، صارت مداومة في الملاعب الرياضية وسباقات الخيل

* * *

في المباراة الحاسمة التي جرت بين فريقي أستراليا ونيوزيلاندا، حرصت ان تكون من أوائل الحضور. تحمست لفريق بلدها وتعالت صيحاتها تُهلِل لأعضائه كل باسمه. صفقت حتى احمر كفاها وانتفخت عروق رقبتها. لَفَتَ حماسها أحدهم. بدّل مقعده مع آخر ليصير الى جانبها. أعجبته العينين الواسعتين والبشرة البرونزية الشهية

- ماذا عندك بعد المبارة؟

تطلعت في وجهه وقامته ثم قالت في سرها: في الثلاثين... لا بد من تنازل.

- أبداً لا شيء مهم.

- ما رأيك بفنجان قهوة

- أوكي فليكن

خرجا من المدرج.

قال ممازحاً وكفه الخشنة تضغط بلطف على أصابع يدها:

I love the exotics. They make me horny (احب الوافدات، يثرن شهوتي)

تمتمت في سرها: «مش مهضوم با برهوم»

على بعد خطوات من المدرج وقف قبالتها وقال:

- انتظريني سيدتي الشهية، ثوانٍ وأحضر السيارة

سوّت طاقيتها وابتسمت علامة الموافقة.

مرت دقائق كانت خلالها تتراقص بعصبية كلما حاذتها سيارة ولم تتوقف. واحدهم أطلق زمار سيارته منزعجاً وآخر مدّ لها إصبعه الوسطى... وثالث شتمها غاضباً

بدأ صبرها ينفذ وأخذت شكوكها تتوالد... وإذ بشاحنة لنقل النفايات تخفف سرعتها وتنحرف صوبها. أشاحت بوجهها عنها ممتعضة خوف ان تحجب فارسها القادم في سيارة ما.

لدهشتها!... أطل رأس السائق من نافذة الشاحنة قائلاً:

- تفضلي فاكهتي الشهية!...

سدني 2010

بانتظار مازن

يرن جرس الهاتف. فَرِحةً أَقرأ اسمه على الشاشة

- آسف (مام)، نسيت عيد ميلادك

- لا تهتم حبيبي، أنا أفرح عندما تنسون عيد ميلادي. أنا لست معتادة على أعياد الميلاد هذه. هذه البدعة الأوروبية لا أرتاح إليها. يعني «بعد الكبرا جِبِّة حمرا»

- ها ها ها....شو كبرا!... انت ست الصبايا أم مازن. سآتي لزيارتك في عطلة نهاية الأسبوع

- على راحتك حبيبي. إذا كنت غير مشغول تسعدني زيارتك. ولكن لا أريدك أن تضغط على نفسك لتزورني.

- لا لا أبداً... أنا مشتاقلك!.....

* * *

السبت صباحاً تحايلت على زوجي، قلت له:

- ما رأيك بطبق كنافة للفطور؟.

- إن كان من أجل مازن فلا تتعبـي نفسك. مازن لن يأتي

- لا!....ليس من أجل أحد. أنا «طالع على بالي» كنافة

اكتفى بابتسامة خبيثة أمعضتني

* * *

الأحد صباحاً، استيقظت باكراً. شربت قهوتي. رتبت بيتي. وضعت مفارش جديدة في كل غرف النوم وعلى الطاولات في غرفة الطعام والشرفات. رششت الغرف برذاذ منعش من النوع الذي يحبه مازن. لم أرتدِ العباية المريحة، بل لَبِسْتُ بنطلون جينز وبلوزة قطنية خفيفة. يجب أن أبدو أماً عصرية يفخر بها «عصفور جنتي»، لا عجوزاً تحرجه أمام زوجته وأصدقائه. كثر رواحي ومجيئي بين غرفة الجلوس والشرفة. أرقب الطريق، وكلما لاحت سيارة حمراء في رأس الشارع أتوقع ان تنحرف شمالاً لتقف في باحة الدار. أرتدّ مخيبة عندما تتابع سيرها. آه... تذكرت... برنامجه ليوم الأحد صباحاً التدريب في النادي الرياضي. سيأتي بعد التمرين. سياتي على وقت الغداء.

قلت لزوجي: نطبخ ملوخية اليوم. مازن يحبها.

صمت لفترة قصيرة ثم قال بلهجة خفيضة كالمغلوب على أمره:

- ماذا ينقصك لإتمام الطبخة

- عندي كذا وكذا... ينقصني كذا وكذا.... وفيما هو يهم بالخروج قلت له بلهفة من تذكر شيئاً مهماً:

- أشترِ أيضاً باقة زهور

- ظل مولياً لي ظهره وقال هازئا:

- ابنك سيجلب الزهور!.

* * *

أنا لست امرأة مكتملة العافية. الوقوف الطويل يتعبني، ويجب أن آخذ أكثر من قيلولة قصيرة اثناء النهار وإلا أصابني وهن وثقل في العينين.

جهزت نفسي لهذا اليوم المتعب. أخذت حبة «سلبركس» وبدأت العمل.

كنت وأنا أقلب قطع اللحم في القدر، أتخيله منكباً على العظام ينهش ما بقي عالقاً فيها ويشرق النخاع من تجاويفها. عندما كان صغيراً كانت أخواته يغظنه ممازحات:

- يلا مازن عشت!... انهش انهش برافو توتو. برافو توتو.[12]

علمّه والده أن يجيب

- مازن أسد ينهش عظام قليلات الأدب طويلات اللسان

وفيما أنا أهرس الثوم مع الكزبرة، تخيلته يتلو عليّ معارفه الصحية ويعطيني درساً بفوائد الثوم والبصل. حتماً سيعيد على مسمعي كيف أن حصوص الثوم النيئة أشفته من الأنفلونزا. وأن مهروس التوم أنقذ حياة صديقه أندرو من لدغ العنكبوت الأحمر.

حتما سيحب الخبز الغامق التحميص الذي أعددته كما يشتهيه. سيقول لي:

- برافو حنون انا أحبه أسمر. لا أحبه أشقر.

- من أجل ذلك تركت دلال وتزوجت هايدي (سأقول مازحة)

- حنون!... لا تشاكسي... هايدي فتاة ممتازة. لا أعرف لماذا لا تحبينها

- لا يا حبيبي أنا أحب المرأة التي تسعدك. و«هايدي» بنت حلال الله يديم المحبة بيناتكم.

- لكنكِ!.... أحببتِ دلال أكثر.

- دلال قضت معنا وقتاً طويلاً. وهي تتكلم لغتنا. الحديث معها كان أسهل. صارت كأنها واحدة من البيت، ولذلك عندما تركْتَها أحسسنا بفراغ في العائلة.

- يا ماما لكل وقت آذانه. انتهى زمن دلال. إنسيها. الحياة العصرية لا تتوقف عند شخص أو تاريخ أو قرابة

بدون وفاء، هذه الـ «دلال» (قلت في نفسي). ما إن انقطعت علاقتها بمازن حتى نسيتنا. والله نحن عاملناها مثل ابنتنا ولكنها تنكرت للعشرة. أدريان، زوج ابنة الجيران السابق، لا يزال يزور أهلها في كل مناسبة ويطمئن عليهما دائماً بالتلفون.

* * *

عقارب الساعة تشير الى الثانية عشرة ظهراً. أتوقع قدومه حوالي الثانية. عندي وقت لأرتاح قليلاً ثم أُكمل باقي التحضيرات. تركت المطبخ وتوجهت إلى غرفة الجلوس. استلقيت على الكنبة، هممت بوضع رجلي فوق الطاولة... رن جرس التلفون. هذا مازن قلت في نفسي. سيقول إنه سيتأخر. أكره ذلك.. الطعام سيبرد، والملوخية لا تعود ملوخية بعد تسخينها.. تفقد نكهتها المميزة.

- ألو..

اهلاً حبيبي

- آسف «مام»... لن أستطيع المجئ اليوم كما وعدتك. داني (الكلب) عنده حالة إسهال حادة. يجب أن آخذه إلى الطبيب. لا أستطيع أن أفعل ذلك إلا في عطلة نهاية الأسبوع

- سلامته

- الله لا يسلمو. ملأْ البيت «بريحة خراه» و«هايدي» (يعني زوجته)، كتير منزعجة!.

- ماشي حبيبي. بس أنا طبخت ملوخية على الطريقة التي تحبها هايدي

- ولا يهمِّك إم مازن!... سنمر غداً أو بعد غد ونتعشى معكم.

بعد أن أقفل الخط، قلت في نفسي: عسى أن يكون المانع خيراً. أخاف أن يكون هناك شيئاً خطيراً يخفيه عني كي لا أقلق عليه.

سدني 2010

أنا وجدتي

جدتي هادئة لطيفة كلامها مليئ بالحب. كلما رأتني هرولت فاتحة يديها مهللة وضمتني بقوة اليها وقبلتني. الحقيقة أنا لا استمتع بضمتها وحبها ولكني استسلم إرضاء لأبي. لا أدري لماذا يريدني والدي أن أحب جدتي وجدي وأعمامي وأخوالي. فجأة صار أبي يتحدث عن نحن ويقصد العرب الامريكيين، وصار يتكلم بعض الكلمات العربية. انا أفضل أي لعبة على «البلاي ستيشن» على أي وقت أقضيه معهم. أسمع جدي يتكلم بنبرة عالية وفيها غضب ويذكر اسمي بين الحين والاخر فأعرف ان الحديث يطالني وأنني قمت بعمل ما لم يعجبه. أنا لا أعرف لماذا جدي غاضب مني. قال لي والدي مرة يجب أن تُشعِره بحبك له.

- كيف؟ سألت

- أركض وأرمِ نفسك بحضنه عندما تعود من المدرسة وقبله. أشكره عندما يأخذك إلى درس السباحة أو ملعب الفوتبول.

لا أفهم إصرار والدي هذا ولكني أعمل به بين الحين والآخر. أبي يقول يحق لجدك ان يقول ما يشاء ولا يحق لك الاعتراض. هكذا نحن العرب نحترم كبار السن بيننا. وفي النهاية لا أحد يحبك أكثر من جدك... عندما أكبر «وأصير قادر» على العمل في ماكدونالد، سأقول له «fuck you» «نحن العرب». اذا كنت تصر على «نحن العرب» لماذا تعيش هنا؟ لماذا طلّقت أمي قبل أن اكمل عامي الأول؟ «نحن العرب» لا يطلقون تقول جدتي... تتسابق أنت وأمي على إرضائي. كل واحد منكم يريدني ان أحبه أكثر. تظنون أني صغير لا أفهم اللعبة. كم أنتم أغبياء!... انا بالحقيقة لا أحب إلا نفسي وقد تعلمت أن استغل سباقكم هذا... المشكلة هو هذا الجد الذي يبدو أنه يفهم علي، وبرأيه انني ولد افسده الدلال. لايعرف هذا الجد أنني بدلالي هذا أقاصصهم. أنتقم منهم. انا مثل البدو

الرُحّل. يومين في بيت أمي ويومين في بيت أبي. يومين مع ستيف ويومين مع ماندي. طز بالاثنين يتظاهران بالحب ولا يحبان.

عندما أكبر سيكون جدي وجدتي قد ماتا. سأذكر جدي وغضبه الدائم عليّ وسأذكر جدتي التي تبقى دائما على مسافة مني. أعرف أن شيئاً منهما يسري فيّ، ولكن هل أن هذا الشيء يحتم عليّ أن اكون عبداً لأوامرهما؟

أنا اتمنى أن يكون لي جدة أمريكية لا تتكلم الانكليزية بلهجة ثقيلة، وتقرأ لي القصص قبل النوم باللهجة التي اتكلمها. كنت أتمنى أن يكون جدي أمريكياً ويفهم أنّ واجباته أن يدللني فقط لا ان يصلح اعوجاجي. بس «يللا» ماشي الحال. هم لا يزوران إلا أياماً قليلة كل عامين. أستطيع أن اتحملهما. على كلٍّ، أنا افتعل الأسباب لأقضي أكبر وقت من هذه الأيام عند أبي.

جدتي لطيفة وهادئة، ولكنها ليست كجدة زاك. كلما أزور زاك أرى جدته إما تحيك الصوف أو تداعب الكلب وتمسد ظهره. جدتي تنفر من كلبي «لِني» كلما تعلق بثيابها ليداعبها. واعتقد أنها لا تعرف كيف تحيك الصوف. لم أرها ولا مرة تفعل، وعندما تتفرج على التلفزيون في المرات القليلة تتفرج «بالعربي». البرامج التي أنفر منها، فكلامهم مثل قرقعة الصحون.

تجلس جدتي كثيراً على السرير في غرفتها وبيدها قلم وورقة يتحرك القلم بالمقلوب: من اليمين الى الشمال. ترى أهذه كتابة؟ أم تصوير؟ أم رموز؟ ترى عن أي شيء تكتب جدتي؟ أمي تقول إنها كاتبة معروفة. كم هو جميل أن يكون لك جدة تؤلف كتب. ولكن لم يخبرني أحد عن أي شيء هذه الكتب. عندما قلت لها أنني أحب أن اكتب القصص الخيالية فرحت... قالت والدموع تترقرق في عينيها:

- حبيب قلبي!... أنت طالِع لَسِتَّك

بَسْ أنا مِشْ طالع لستي. انا أكتب من الشمال الى اليمين وأكتب عن الصحون الطائرة وعن رجال قادمين من الفضاء. ترى عن أي شيء تكتب جدتي؟ امي لم تقل لي عن أي شيء تكتب جدتي. وأنا ما لي جَلَد اسمعها وهي تتأتئ بانكليزيتها الثقيلة على سمعي. أفضل عوض أن استمع اليها أن أشوف أي شيء على التلفزيون

جدتي صامته، لا تتأفف ولا تلح عليّ حتى أقضي معها وقتاً أطول، ولكني أحس أن ابتعادي عنها يحزنها. لمحت أكثر من مرة الانكسار والخيبة على وجهها وهي تضمني وانا أَتفلّتُ منها... عندما أكبر ساطلب من أمي أن تحكي لي بعض القصص التي كتبتها جدتي، ولكن لا اعتقد ان أمي ستفعل، فأنا ما رأيتها يوماً تمسك أحد كتب جدتي وتقرأ فيه مع انها تغرّد بالعربية طول النهار مع جديّ وتتفرج على التلفزيون العربي باهتمام في بعض الأحيان.

بوسطن 2006

نخوة عربية

انا وأختي سميرة ذاهبتان إلى السوق في أول يوم من وصولها إلى سدني. في الطريق تدخل دكاناً صغيراً لتشتري علبة سكائر. أنتظرها في الخارج. تمر امرأة طويلة القامة يتبعها شاب لم استطع تحديد علاقته بها. تنظر إلي وتقول بعصبية:

- تعرفين عربي
- نعم

قالت بلهجة جازمة:

- اتبعيني

كانت خطواتهما سريعة مما باعد المسافة بيني وبينهما. عند المنعطف أضعت توجههما. اخترت الانعطاف يميناً ولما لم أرهما عدت وانعطفت شمالاً. لم أرهما أيضاً، ولكني تابعت تقدمي. بعد عدة أمتار، لفت نظري بيت يختلف طرازه عن بيوت الشارع. قلت في نفسي: لعلهم فيه.

كان باب البيت نصف مفتوح. دفعته فإذ أنا في قاعة تشبه قاعات الانتظار في المراكز الرسمية. كانا هنالك يتكلمان مع شابة أخرى بثوب خمري ينسدل فوق احد كتفيها كأنه الساري. سألتها ما القصة؟ قالت تصطنع الهدوء:

- السيدة، وأشارت إلى المرأة المقصودة، عندها قصة تريد ان تبلغها للمركز. هي لا تعرف اللغة الانكليزية. حاولت مساعدتها قدر الإمكان دون فائدة. هل تتلطفين وتكتبين لها الرسالة؟

بنفس مليئة بالاعتزاز والثقة بالنفس، انتشلت الورقة من يدها وأخذت اكتب القصة. كتبت رؤوس أقلامها ثم تفاصيلها. سويت لغتها ووضعت خطوطا حمراء تحت النقاط المهمة وسلمتها للفتاة صاحبة الثوب الخمري. تنفسْتُ الصعداء... سأعود إلى ضيفتي قبل أن تَمَلّ الانتظار. وفيما أنا أهم بالمغادرة، مدت صاحبة الثوب الخمري يدها بالورقة، وإذ هي بيضاء فارغة. صرخت مستهجنة؟

- ماذا فعلْتِ!

- محوْتُ ما وَضعْتِ تحته خطاً أحمر (قالت)

- يا الله!... ما هذا الغباء!. غير معقول!.. عليّ أن أعيد العمل مرة ثانية

لم تعتذر. لم تنفعل. ظلت تحدق بي بطريقة آمرة

لم اعرف كم مر على من الوقت ولكنى شعرت انه كان كافياً لأضيّع أختي المنتظرة على الطريق. ما هذه الورطة!... ماذا جرى لسميرة؟ هل دبرت أمرها واستطاعت الاستدلال على البيت؟ أتكون تاهت بين هذه البيوت القرميدية النابتة كالفطريات في نظام واحد؟

- ماذا لو ارتاب فيها أحدهم وابلغ السلطات الأمنية!. رباه هي لا تحمل أوراقها الثبوتية وحتما لا تحفظ عنوان البيت

- ماذا لو استغل مهووس جنسياً ارتباكها واستدرجها إلى...

ماذا لو صادفتها شلة من الشبان السكارى!

لا لا لا... لا أستطيع ان اتحمل كل هذا الذنب

ماذا أفعل؟!.. لو أنني مؤمنة لاستنجدت بالله وملائكته... لو اني كافرة للعنت الله وجميع القديسين!.. لو أني قدرية لسلمت أمري للقدر... ماذا افعل وانا الضائعة بين كل هذه الانتماءات؟

- يا رب!. يا رب بجاه كل الانبياء والقدسين والأولياء، أرشدني ماذا أفعل!.. ماذا أفعل!!..

وقادتني غريزتي الى الصراخ...

الحنجرة يصيبها اختناق... عضلة اللسان تتصّلب... حجر ثقيل يضغط على الصدر... الصوت يأبى أن يخرج... أحاول... احاول... واستفقت على يد تهزني

انتفضْتُ ودقات قلبي تتسارع: قبلت اليد التي هزّتني. شكرت ربي واستدرت الى الجانب الآخر من الفراش، أُمَنّي النفس بنوم هادئ وحلم وردي استذكره بفرح في الصباح.

سدني 2006

كاريكاتير

خطوات وتدلف عتبة العقد الخامس.... تصابيها مختلف كما كانت في الماضي مراهقتها. يثير فضولها أي جديد في عالم اليوم الزاخر بالمستجدات التكنولوجية. تريد أن تثبت لنفسها قبل الآخرين، أن لها عقلا شاباً قادراً على مسايرة الركب الحضاري. هدفها اليوم، هذا الجهاز العصريّ (الكمبيوتر) الرابض في كل ركن أينما اتجهت: من أكبر دائرة في الدولة الى أصغر متجر، حتى صالون الحلاقة (بَلا صُغْرة) يعمل على الكمبيوتر... وقررت ان تغزوه.

تستعين بأصغر ابنائها، تتحمل عليائيته على مضض. يضايقها هذا الوضع المقلوب... الإبن معلماً!... تتعرف منه على المبادئ الأولية التي يرتكز العمل عليها. تستخلص، بعد لأي، أن الكمبيوتر أرشيف كبير: برامج وملفات وحقائب وما إلى ذلك.

قررت أن تبدأ بما يسمونه (مصنع الكلام، word prossessing)... خطوة... اثنتان... ثلاث... واصبحت جاهزة للبدء بالتنفيذ. شكرت الصبيّ واعتدلت في جلستها. غمرها اعتزاز كبير في النفس. كم هي سعيدة... وكانت خطوتها الأولى كتابة رسالة إلى صديقتها سكينة في بيروت. ستشرح لها ما في صدرها من مشاعر وأي انتشاء يغمرها وهي تغزو هذه التكنولوجيا الجبّارة التي تقدم لك العالم بكبسة زر. تمادت في أحلامها: غداً تدخل سوق الإنترنت. ستتباهى على رفيقات دربها بما ستكتشفه في هذه السوق: أحدث الإكتشافات من مشرق الأرض إلى مغربها، كل الحضارات العالمية طريفها وتليدها، آخر إصدارات المطابع من معارف وعلوم وفنون. والأجمل هو انها ستتمكن من اقتناء ما يحلو لها من كتب أو صحف أو دوريات دون عناء البحث في المكتبات وإرهاق النفس والجيب. لجمت خيالها وبدأت:

صديقتي العزيزة سكينة.

لم تكتمل فرحتها، فما إن وصلت إلى منتصف السطر الثالث حتى بقدرة قادر غاب من أمامها ما أجهدت النفس في تحريره على الشاشة. كيف حصل ذلك؟!.. ما الذنب الذي اقترفته حتى اغضبت الحروف فتوارت؟!. لا تدري. ما العمل؟! ما العمل؟!!... أخذت تضرب على غير ما هدى... تجرب ازراراً وأزرار... وراحت تتوالى أمامها صور وأشكال محيرة. تجرب بعضها فيقودها الى تعقيدات تضيع في زحمتها... لا تستطيع التقرير في شأنها. وتغرق في لجج من الحيرة والارتباك.

يرن جرس الهاتف. تتجاهله... يصر على الرنين... تُصِرّ على التجاهل. يستفيق الزوج من قيلولته غاضباً

- أين انتم!.. ما في حدا يرد على أخو الشرمو.. صديقتِك عايده (يقول بعصبية لم يعتدها منه.

تأخذ السماعة من يده.

تطول المكالمة... وتسمعهم يتكلمون. تصلها من حين الى آخر عبارات متهكمة... ترن ضحكات يتردد خلالها اسمها فلا تبالي. إن ما هي فيه من هَمٍّ أقوى من أي فضول نسائي حتى ولو كانت هي نفسها موضوعه.

تقترب منها ابنتها وتسأل أن كانت بحاجة لأي مساعدة فيمنعها كبرياؤها عن قول نعم صريحة... تتصنع اللامبالاة.. الابنة رأتها فرصة مناسبة لإظهار براعتها والقيام بدور المعلم والمرشد على من اتخمتها طوال عمرها في لعب هذا الدور. بلحظة تستعيد الصفحة الضائعة وتشرح بعليائية لوالدتها معنى بعض التعابير. تعود الأم إلى متابعة عملها. ما هي إلا دقائق حتى برزت لها مشكلة أخرى. اختفى نصف الصفحة عن الشاشة. وبعد جهد ومحاولات عشوائية حيناً وهادفة حيناً آخر، عاد الوضع الى ما كان عليه. تنفست الصعداء، لقد كفاها الله ذلّ السؤال.

همهمات وضحكات خافته تسري في الغرفة المجاورة... لا بدّ أنهم يتندرون عليها هؤلاء العفاريت. ولكن لا بأس ستثبت لهم أنها لا تقل عن أحدهم براعة في هذه التكنولوجيا العصرية. ساعات معدودة وربما دقائق وتقهر هذه الآلة اللعينة: تخطئ... تصصح الخطأ... تقع في الخطأ ذاته مرة أخرى... تعيد التصحيح: مرة... إثنتين... ثلاث... ترقص الكلمات أمام عينيها... ترتعش يداها...

يغشى بصرها ضباب يعميها عن تمييز موقع الحروف. تنهض عن كرسيها، تقصد الشرفة عل الهواء المحمل بانفاس الياسمين المجاور يساعدها على استعادة ما ارهقته المحاولة من أعصابها. تحاول ان تشغل بالها بمراقبة حركة المارين حيناً، بتقافز الحمامات لالتقاط فتات الخبز التي يلقيها لها المتسكعون على الرصيف، بالإنصات إلى تغريدات الطيور المنبعثة من المنتزه المجاور... تعجز كل المحاولات عن تحويل ذهنها عن الموضوع. تهرع إلى الهاتف، تحاول ان تشغل نفسها بالحديث الى أيّ كان... تلقي بالسماعة قبل الوصول إلى أخر رقم هي بصدده... تعبر من غرفة الى أخرى بخطوات قلقة متوترة وهم من وراء الباب يسترقون النظر ويطلقون تلك الضحكات الخافتة... يتدخل الزوج مداعباً قصد التخفيف عنها. لا تطيق مداعبته. يقترح شيئا ما ولكنها لا تسمع اقتراحه. يصر على التدخل. يجلسان معاً قبالة هذه الآلة اللغز ويصلان الى تسوية. يتركها بعد أن اطمأن على ان كل شيء على ما يرام. تعود لإتمام ما بدأت به. لقد أقفلت الباب على نفسها هذه المرة. لا تريد لأحد ان يشمت لفشلها. أسطر قليلة وتبرز مشكلة أخرى مشكلة أدهى من كل سابقاتها... لقد تغيرت الحروف تماما... تضرب حرفاً فيرتسم على الشاشة شكلا الله أعلم ما هو وإلى أي لغة من لغات الارض ينتمي... واذ أعيتها الحيلة نادت، وأمرها لله، طالبة النجدة. كانوا قد نسوا أمرها وانغمسوا حتى الاذان في مشاهدة أحد أفلام رحلات الفضاء الخيالية. لم يلبِ احد النداء. عز عليها تكرار النداء. ضغطت زر التشغيل بحركة عصبية ثم تناولت قلمها الأزرق دغدغته بحنان، وبدأت كتابة رسالتها إلى سكينة، ولكن بأسلوب وموضوع مختلفين.

من مجموعة، «... والأبناء يضرسون»

الضُّرة

هي لم تكن مُرّة. كانت كذلك أوّل مرة جاء بها الى البيت، إلا أن شيئاً عكس المرارة خفق بين جناحيّ عندما دفعها باتجاهي ووقف قبالتنا نحن الاثنتين هازاً سبابته مائلاً جذعه قليلاً الى الأمام مسويا «غطرته» ثم صائحاً

- شوفو!..، وجع راس ما ريد... إذا تزودنها اثنيناتكن طالقات بيوم واحد. مفهوم!.

أعترف أنني كنت أحسد لها قدّها المتناسق وصنعتها في المشي، كما أعترف انني كنت أتلصص داخل غرفتها كلما رأيت الباب موارباً فألوي شفتيّ احتقاراً لما أراه من فوضى تعم المكان. لا يُبقي رجل على امرأة عفنة. يوم سمعتها تتأوه من وجع في رأسها تمنيت أن يكون ما بها ورماً خبيثاً. وراح خيالي يسبح كيف ستكون حالها بعدها... سيتساقط شعرها الكثيف اللامع الذي تتباهى به سيصفّر ويذبل وجهها. سيهجرها جاسم ليعود كلياً إليّ، والأهم انها لن تكون قادرة على انجاب الصبي الذي تزوجها لأجله.

دعتني يوماً بتودد لأشاركها في مشاهدة فيلم فيديو أهدتها إياه صديقة. بقيت صامتة... أصرّت. جلسنا معاً لأول مرة في غرفة الجلوس نشاهد العرض ونضحك. ضحكاتي كانت مخنوقة حيية. هي كانت على سجيّتها. تشاغلْتُ بإحضار طبق من «البوب كورن» وإرخاء الستائر. كانت يدانا كثيراً ما تتلامس فأحس إحساساً غريباً لا استطيع تفسيره.

يوم ظهرت عليها أعراض الحمل، فكرت أن اعمل لها عملاً شيطانياً يسقط حملها، ولأن ما أفكر به لم يتعد يوماً عتبة الخيال، ظلت محاولة الإسقاط تنتظر على بابه. كنت ألحظ أنها تعود مشرقة مرحة محبة في كل مرة تزور بها أهلها، قد تحضنني، تعانقني، تسألني كيف قضيت يومي.

تغمرني بفيض من الحب أشعر إزاءه بالذنب تجاه نواياي السيئة نحوها. كانت تدخل غرفتها لساعات تخرج بعدها وتعب جميل يكحل عينيها فيما أكون انا مشغولة ببناتي الثلاث.

ظلها خفيف هذه الضرة. لا تنتقد تصرفاتي ولا تحارب لتأخذ حصة أطول من زوجي ولا تعترض إذا ما صرفت الخادمة دون اخذ رأيها. بدأتْ مشاعري تتغير تجاهها، خصوصاً بعد أن أجهضت طفلها. مزيج من مشاعر فرح الانتصار وغمة الشفقة اختلطت بداخلي ولكنني صعقت عندما أعلمتني أنها هي من أجهضت نفسها

- لا أريد ان أحمل من ذاك التافه المغرور (قالت).

بقيت صامتة. انا لا أوافقها. هو ليس تافهاً ولا مغروراً. هو لطيف وكريم وشكله جميل. ويوم خطبني تباهيت به على كل بنات العائلة. عيبه الوحيد هو أنه يريد صبياً لم أستطع أنا ان أمنحه إياه

البارحة دعتني الى غرفتها، جاءت بالمصحف وجعلتني أقسم ويدي فوقه أن أبقي ما سوف أراه سراً. ارتبكت... ترددت... إصرارها أضعف مقاومتي. قرفصَتْ أمام باب خزانة الملابس. أزاحَتْ كومة من ثياب رمتها بلامبالاة على الأرض. أخرجت حقيبة سوداء كبيرة، فتحتها. أخرجت منها شيئاً تبين فيما بعد أنه جهاز كمبوتر. تربعَتْ فوق السجادة، وضعته في حضنها وراحت أصابعها تعبث بحركات سريعة. لم يثرني ما تقوم به. أنا لامبالية بهذه التقنية الجديدة، عندي ما يكفيني، مسؤولياتي البيتية والاجتماعية لا تبقي لي وقتاً لمزيد من تسالي الحياة. رأيت في هذا الجهاز العصري وجع رأس أنا بغنى عنه. وإذ استدرْتُ خارجةً، صرخَتْ:

- راجية: خليك شوية. أريدك ان تشوفي هالشي

ارتبكت. أنا اسمع ان الإنترنت فيها أشياء كثيرة مريبة.

- لا أريد أشوف شي عندي شغل كثير

- لحظة! لحظة من فضلك

هيأت نفسي لأرى بعض المحرمات وسرت رعشة شهوانية في أطرافي. هيأت لساني لعظة توبيخية أرميها بها. سأقول لها عيب هذا الشي لا يصح ان يحصل في بيت محترم مثل بيتي.

«سأفش» فيها كل حقدي على الحياة التي جعلتني امرأة مكسورة الجناح مكسورة الخاطر لا تنجب صبياناً

انتكس هياجي عندما سمعتها تقول بحماس كلاماً شغلني حسدي عن استيعابه. لملمت خيبتي. ثم رأيت نفسي أسالها:

- من علّمكِ كل هذا؟

- أخي عدنان، آخر العنقود كما تقول الوالدة، حزن كثيراً عندما وافق أهلي على الزواج. لم يفهم ما في كلمة عانس من رعب يعشش داخل رؤوسهم ولا يرحم رأسي. بكى يوم تزوجت وقال وهو يودعني: سأعمل المستحيل لأجعل حياتك أسهل. وقدم لي العالم من خلال هذه الحقيبة. انطلاقة الروح التي أعيشها مع عالمي المتخيل هذا، يجعل سجن الجسد مع هذا التافه المغرور أمراً مقدوراً عليه

صارت بعد هذا تترك الباب مواربأ وتناديني عندما تسمع وقع خطواتي. قد أدخل وأقف خلفها. كانت تبتسم ابتسامة ارتياح عندما تسقط انفاسي فوق رقبتها. قد تشدني من يدي وتضغط عليها بحنو وهي في غمرة فرحها الطفولي. لست أدري لماذا كنت أرتعش عندما تلامس يدي يدها

سدني 2008

الأوبرا هاوس (إسلاموفوبيا)

أنا الأوبرا هاوس!.. أرتع مزهوة في أحضان خليج سدني. أمتلئ دلالاً عندما يداعبني القمر بغمزاته الوالهة، وأستسلم مغناجةً؛ عندما يدثرني بدرُهُ بعباءته الفضية. أنا مثل جبل المطربة صباح (الله يرحمها) لا تهزني ريح مهما عتت، وأهتز حد النشوة عندما يلامس خاصرتي جسدا عاشقين شبقين فاض بهما العشق فلاذا بي يطفئآن لظى عشقهما بعيداً عن أعين الفضوليين.

أنا الأوبرا هاوس!.. أخطف قلوب الناس من شرق وغرب، من شمال وجنوب: الصعلوك منهم والأمير، المعدم والمترف، الوفيّ والخائن، المؤمن والكافر، النزيه والسافل، كلهم يتزاحمون عند أقدامي، يفتخرون ويفاخرون إذا زاروني يوماً ويحتفظون بصور تضمني وإياهم ذكرى جميلة للقادم من وحشة أيامهم.

هذا الصباح، وشوشت في أذني موجة متجرئة.

- استفيقي من أحلامك الوردية يا عروس سدني... أشباح العتمة تتراقص عند جذورك

قهقهت مستخفة:

- وما همَّني الأشباح إن كان كل الأنس عشاقي!

انا أوبرا هاوس!.. أنا مفخرة أستراليا الأولى: أتصدر بطاقات الأعياد ورزنامات السنين وأيقونات الهدايا. أنا أوبرا هاوس أتربع أميرة في كل بيت: أنا عند هنري كرت بوستال، وعند نيكولاس لوحة فنية معلقة في صفحة داره. وعند وندي ساعة فوق طاولة سريرها. وأنا في حقيبة

سفر راج وجون وأحمد ونوشين وباتريك وشارلوت؛ تحفة يعتزون بتقديمها هدية لمضيفيهم في نيويورك وباريس ولندن ونيودلهي ودبي والقاهرة وبيروت وفرانكفورت...

- استفيقي من زهوك!. إحذري وحاذري!

- أنا أوبرا هاوس!... أُحذَر ولا أَحذَر. أكتم أسراراً وأسرارا: مناجاة العشاق اللاهبة، خيانات الوعود المخاتلة، عرس الأماني وانكسارها

أنا أوبرا هاوس!.. أُحذَر ولا أَحذَر. شاهدة على حبائل المخادعين، مكائد الخبثاء، فحيح الدسائس... فمن يجرؤ على استعدائي؟

- هنالك من يجرؤ قالت، وهي تشيح بوجهها عني وتتلاشى عند أقدامي

* * *

أنا موناليزا سدني!.. استفقت اليوم وبي شعور لا أستطيع تحديده: غضب، حزن، شقاء، هياج، زعزعة تقض كل كياني.

ساءلت النوارس والحمائم وزبد الموج وشعاعات الشمس والصخور على اختلاف ألوانها وأنواعها، فأطرقت جميعها مرتبكة أمام تساؤلي

رقص الغراب فوق رأسي

- أصدقني القول يا غراب، ما بال أهلي وعشيرتي واجمين مرتبكين؟ ما سر هذا الحزن الغضب الهياج القضيض الذي يستحوذني؟

- أطرق واجماً

- ما بالك يا بوز النحس (قلت)

- أفضل أن تسمعيها من غيري

- من أين جئت بهذا الأدب وأنت لا تهنأ إلا بأخبار الشؤم

- ليس هذه المرة يا سيدتي الجميلة

- أسرع!.. قل ما عندك ولا تتعفف.

- أخاف على مشاعر سيدتي الجميلة ومولاتي.

- مراوغتك هو أكثر ما يؤذي مشاعري. هات ما عندك.

أطرق وانخفضت حدة صوته وقال:

- إحذري... وحاذري يا سيدتي. لقد... برز لك أعداء.

- ما هذا الهراء!... أنا ما عندي إلا معجبين

- عفوك سيدتي.. الزمن تغيَّر

- ولو!.... أوبرا هاوس تغيِّر ولا تتغّير

- عفوكِ سيدتي!.. إحذري وحاذري

- أنطق يا بوز الشؤم. قل ما عندك

طاطأ رأسه، وتمتم كلاماً غير مفهوم

- أوضح يا بوز النحس:

- إنهم.. إنهم يتهمونك بال بال بالانحياز إلى الإسلاميين!...

- وماذا أيضاً؟ (سألت)

- يتهامسون قائلين: إن شكل الأوبرا هاوس هو شكل ثلاث نساء محجبات!...

- وماذا بعد؟

تمتم وقال بصوت خفيض:

- أصحاب النخوة الوطنية غاضبون. يقودون حملة على الفايس بوك لمحاربة أسلمة البلاد.

- وماذا بعد؟!..

ليلة البارحة، وأمام جموع المحتشدين في قاعة بلدية سوري-هلز، قال السيد نابكوف من حزب أُستراليا البيضاء:

- نعدكم بمحاربة أسلمة أمتنا العظيمة. وأضاف، ليست أوبرا هاوس هي وحدها المستهدفة بالأسلمة، فقد لاحظت الليلة الماضية هلالاً يزحف صوب النجم الجنوبي Southern Cross. إن الهجمة الإسلامية تهدد رموزنا الوطنية الواحد تلو الآخر. هذا أمر لا يجوز أن نتهاون به... ثم أضاف:

- نحن لن نرتاح حتى تعود البلد الى أيدي حماة الأرض الأصيلين، لا أولئك الذين جاؤونا بالقوارب الذين لا يحترمون طريقتنا في العيش والحياة!

قهقهة هستيرية ارتجت لها الأرض والبحر والسماء والكائنات. تجمدت الأمواج عاجزة عن متابعة رحلتها نحو الرمال. ارتجفت الأسماك وهرعت خائفة إلى مخابئها. الرمال غادرها لونها الذهبي الى الرمادي الكئيب. صخور الشاطئ تخلت عن وقارها ورفعت رؤوسها متسائلة. النوارس تجمدت في وسط السماء لا تقوى على متابعة الطيران ولا تحملها أجنحتها على الهبوط. ذبل ضوء القمر فعم المكان الظلام.

أيار 2015

ثانياً: ذاكرة عشوائية

هي ذاكرة عشوائية مزج غير بريء بين السيري والمتخيل. نسج يدمج الصورة الشعرية اللماحة المترفة بلغة العادي واليومي والمبتذل. هي ذاكرة عشوائية لأنها تنتقي من الزمان والمكان ما يروق لها لا ما يروق لمنظري النظريات في فن القص او السيرة.

1- ذاكرة تتنفس في طائرة كوانتس

«أطل على ما أريد». تذكر محمود درويش فيما هو يطل من نافذة السيارة على البيوت القرميدية الرائعة آمنة بين أحضان السرو والصنوبر والأوكاليبتوس.

- لماذا يبيع محمود درويش مليون نسخة من كتابه ولا يبيع هو سوى بضع مئات؟ ترى لو أنه كان قد بدأ الكتابة في عمر مبكر هل كان حظي بحظ ما من النجاح؟ هل كان حصل على شهرة كشهرة درويش والطيب صالح ويوسف إدريس!؟... كل من قرأه يشهد له يالإبداع والتميُّز وعمق الرؤية. فلماذا لا يطاله شيئا مما يطال كل تلك الاسماء الضاربة في السماء؟

لا لا. هو لا يستطيع ان يكون مثل درويش وأدونيس. درويش يبقى دائماً خارج الحدث، على قرابة منه ولكن ليس بداخله. أما هو فينغمس بتفاصيله حتى ولو كان على بعد الآف الكيلومترات من حدوثه. لا يستطيع أن يرى الصورة بالوضوح الذي يراها المتفرج.

- بل قل إنك جبان تخاف الفشل وتؤجل مشروعك لأسباب أنت وحدك تراها تضحية ونكران ذات: «أَنتظِر حتى يكبر الزغاليل. «أَبتعد عن الأضواء إرضاء للزوجة الغيورة»...

كان يعتذر عن دعوات كثيرة فقط لأنه يحس بعدم ترحيبها. يحبها؟!.. يخافها؟!.. يتحاشى غضبها؟!.. يتوسل رضاها!... كله وارد. هي عشقه الأوحد. أدمن هذا العشق على مدى أربعين عاماً وحتى بعد مماتها لا يستطيع ان يأخذ إلى الفراش امرأة أخرى. حتى في ما يسمونه أزمة منتصف العمر عنّ له ان يتفلّت من قيد عشقها. بحث عن علاقة وعندما سنحت الفرصة وأخذ الأخرى إلى الفراش علم أنه مدمن عليها وعليها فقط

نزعه من شروده لعنة أطلقها السائق باللغة العربية اذ تخطاه سائق أهوج. تعجب من استيقاظ سدني المبكر هذا. كم تغيرت هذه المدينة على مدى عشرين سنة! وانت يا سعيد تغيرت.

اشتباكات بين فتح وحماس. مجزره في بيت حانون. انسحاب وزراء أمل وحزب الله من الحكومة. خطف أساتذة جامعيين في العراق، ومع ذلك تحمل حالك راجعاً الى ما هربت منه قبل عشرين سنة.

المرة الوحيدة التي زار فيها بيروت قبل عشر سنوات ملأته بمشاعر متضاربة. رأى الاشياء أكثر حناناً وألفة. كانت شجيرات الزيتون الرابضة في حقلة صغيرة على جانبي الطريق في «البرامية»، البلدة التي استضافته، تملؤه بانتشاء ما بعده انتشاء. شجيرات تبعث في نفسه أحاسيس لم يشعر بمثلها منذ زمن طويل. أحاسيس لا يضعفها التكرار ولا تقتلها العادة.

- تمهل رجاء... يقول للسائق. يفتح زجاج النافذة، يتخذ نفساً عميقاً، يملأ رئيتيه بعبق الأرض. يشبع ناظريه من تلك الزيتونات الرابضة كدجاجة تحتضن بيضها، كجدة تعتصر حفيدها البكر. ترى لماذا لا يعتريه مثل هذا الانتشاء إزاء أشجار الزيتون التي يزرعها العرب في حدائقهم في سدني؟

سره ما رآه من شوارع واسعة ونظيفة وكاملة الإضاءة

قال لها:

- هذه الشوارع وحدها تكفي الحريري فخراً

- قالت متهكمة، عجبي لسذاجتك!... كيف تُسَّر بهذه الشوارع النظيفة والمضاءة ووجوه الذين فوقها مسكونة بالقلق والبؤس والخوف على المصير؟!

نعم أحزنه ذلك البؤس فوق الوجوه وعجب لهذا الانسان الصابر الشاطر.

- شاطرين اللبنانيه قالت له عندما انزلتهما عربة أمام صالة معرض الكتاب في «البيال».

كانا حائرين كيف يقطعان المسافة بين موقف السيارة وصالة العرض، فهما لم يحملا مظلة ولا واقياً من المطر التشريني الذي انهمر فجأة. توقفت أمامهما عربة كأنها انبثقت فقط لحل

مشكلتهما.

- تفضل أستاذ (مال سائقها برأسه صوبـهما وقال)

عند الوصول سأله: كم تريد؟

- اللي بيطلع من خاطرك أستاذ

يومها، هزه المشهد. ومن وحيه كتب فيهم زاويته الأسبوعية في صحيفة التلغراف العربية التي تصدر في سدني: «إنهم بيروت وملحها وناسها وعملتها الصعبة».

ترى كم من الناس قرأها؟ هو لم يتلق تعليقاً واحداً على جودتـها أو ركاكتها. لن يكتب بعد اليوم كتاباً ولا حتى مقالة... ولماذ يكتب ما دام لا يوجد من يقرأ؟

* * *

طائرات الكوانتس دائما ملآنة. تمنى لو يكون مقعده على طرف فلا يزعج جليسه كل مرة يريد ان يذهب إلى الحمام.

لو انه استجاب الى ما عرض عليه عند انطلاقة الثورة، لكان هذا المتعجرف على الحاجز ضرب له تعظيم سلام وقال له بأمرك سيدي. هو يومها لم يرفض العرض لأنه جبان كما قالت له عينا زوجته الغبية المراهقة سياسياً كما كان يسميها، بل لأنه لا يؤمن بسياسة الاستزلام. تألم وهو يسترجع السنوات السابقة على إعلان الثورة أيام كان العمل سرياً لا ينتمي إليه إلا كبار النفوس الشجعان. كم تغيرت الثورة بعد انفلاشها العلني. كثر المنتفعون. أبو مجاهد، أبو فيصل، أبو طلال، أبو مصطفى أبو ضراب السخن... تنحى لأنه لا يريد أن يكون واحداً من هؤلاء الأبوات المنتفعين لا النافعين

صديقه الحميم أبو غسان لامه يوم قرر أن يتنحى.

- وتتركها للزعران والمنتفعين والجبناء. إبق وحاربـهم من الداخل

- لا أستطيع. أعصابي لا تتحمل.

لا زالت كلمات أبو الفضل تغضبه وتؤلمه: نرسل أسامة في عملية، فيستشهد. نقيم له تأبينا ضحماً في بلدته فيتحمس شباب البلدة وينضمون إلينا بالعشرات

انتفض من مكانه، مسكه من خناقه وقال في حشرجة:

- يا عكروت!.. أيها التاجر الحقير!.. حياة الناس ليست بضاعة تُشْرى وتباع. تفو عليك أيها الحشرة الطفيلية. أنت قمل الثورة وعَلَقها يا خائن الأمانة. يلعن أبو الذين نصبوك أميناً على كوادرها النبيلة الشريفة المعطاءة.

أبو غسان أفضل منه. استطاع ان يستوعب الشواذ.

- شعبنا ليس جوقة ملائكة يا سعيد

تنهد وقال في سره: ربما كنت على حق يا «أبو غسان». ربما كان عليّ أن أستمر وأقاوم من الداخل لا أن أحرد مثل الولد المدلل الذي ينسحب من اللعبة إذا أزعجه طفل آخر

* * *

غرق في مقعده الذي لم يكن مريحاً، فعلى يمينه رجل «زقاقي» بلغة جارته الشامية سميرة، يتكلم مع جاره بصوت عالٍ ويشتم الانكليز والأسترال باللغة العربية. وعلى شماله سيدة عجوز أسترالية تتأفف ولا تنفك تتمتم بكلمات يفهم منها أنها منزعجة من هؤلاء (الوغ) وتبدي تبرماً كلما استأذنـها للذهاب الى الحمام. ترى كم سيمضي من الوقت حتى يكتشفوا غيابه؟ لقد حرص على ان يبدو الأمر وكأنه ذاهب لقضاء حاجة ما. لم يحمل معه إلا الضروري من الثياب وصورة زواجهما. عندما رفعها عن رف المكتبة ليدسها بين الثياب، شعر قرصة حزن واستفقاد أليمين.. تأمل وجهها بحنان بالغ. الابتسامة الخجولة وانحناءة الرأس المتواضعة التي كان يغيظها في تعليقاته عليها

يبتسم لسلاطة لسانها:

- ولك روح يا مغرور أنا ما تزوجتك إلا شفقة. خِفت تقتل حالك إذا رفضتك. قليل ما كنت تحبني!

أيه والله أحبها منذ النظرة الأولى!. كانت آتية من احدى الضواحي إلى مدرسة المخيم، في السابعة عشرة من العمر. طبيعية، مختلفة عن بنات مخيمه. تكلّم الصبيان من غير عقد وبدون أن تتوجس منهم أو من «شو بدهم يقولوا الناس». وكانت خامة وطنية نظيفة وبريئة حسب تعابير ذلك الزمان. ظل حتى ماتت وهو يتهكم على سذاجتها ويعيد قصة مشاهدته لها وهي تصفق بحماس ما بعده حماس للأستاذ رياح المعروف بعمالته للمكتب الثاني عندما ختم كلامه في إحدى المناسبات قائلاً: «عشتم وعاشت فلسطين». من يومها صارت قضيته. رشحها للانضمام إلى التنظيم السري الذي كان هو رئيس إحدى خلاياه، وقبل أن تدخل التنظيم كانت قد دخلت قلبه وهام بها. ندم على كل ما سببه لها من ألم بسبب غيرته غير المبررة. فتاة بريئة حد السذاجة كيف يمكن ان تكون صاحبة سوابق غرامية ولاعبة على حبال الشباب كما كانت تصور له هواجسه!

لم يكن صهراً ولا زوج أخت. هو ابن أضيف إلى العائلة يقول الوالد متباهياً به أمام أقاربه وأصدقائه. وهو من ناحيته أحب عائلته الجديدة وتحسس هموم كل فرد من أفرادها. أحب التماسك الذي كان يفتقده في عائلته. أحب ابتعاد هذه العائلة عن التزمت والتمظهر. أحب التعاضد العفوي الذي يربط أفرادها.

* * *

ندم لأنه لم يقطع خط التلفون. في هذه الحالة سيكتشفون غيابه. أول من سيقلق عليه ويهرول لتفقده هو هذا اللواطي، ابنه الأصغر. هو أكثرهم حباً له وأشدهم عاطفة وحناناً ولهفة عليه. هو الوحيد الذي لا يكلمه إلا بالعربية وهو الوحيد الذي كان يشاركه مشاهدة قناة الجزيرة ويجمع التبرعات لأهل غزة ويشارك في المظاهرات التي تقام دعماً للمقاومة ويتابع ما يجري في غزة وبغداد وشبعا. منذ اعترافه بميوله الجنسية الشاذة وهو يسعى لاسترضائه. رغم كل القسوة التي عامله بها، رغم طرده من المنزل وتهديده بالقتل اذا لم يرجع عن شذوذه، ظل يستسمحه ويرجوه أن يتقبله

- كان بإمكانه ان يقابل زعيقي بزعيق أشد، واتهاماتي باتهامات أعنف وأقسى، ولكنه لم يفعل. لم يقل لي كما يقول أمثاله: أنت المسؤول، تربيتك الغلط عملتني هيك، بل قال: هذه هي طبيعتي!.. الأمر خارج عن إرادتي. إنه قدري.

- طبيعتك يا عرص أو مَحِنتك أو المجتمع الفاسد الذي تربيت فيه؟!

- لا يا ابو أيمن، المجتمع الذي تربيت فيه ليس فاسداً. هو مجتمع صحي يقبلني كما أنا، لا كما يجب أن أكون.

- يا عيب الشوم عليك وطيت راسي بين الناس

- يا أبو أيمن لا انت مؤمن حتى تقول هذا كفر وهذا حرام وهذا يؤدي على جهنم، ولا أنت في عين الحلوة حتى الناس تعيّرك. هوِّنها بتهون صعبها بتصعب يا أبو أيمن...

حاول أن يهوِّنها وما هانت. كانت النار التي تأكل قلبه. كانت جهنم التي حكت عنها الاديان. عندما كان يتخيل ابنه الذكي المتفوق في دراسته، الموسيقار الموهوب، المحب الحنون، يعاشر ذكراً، يغلي الدم بعروقه. يهم بتنفيذ تهديده.

- فقط أريد أن أعرف هل انت راكباً او مركوباً سأله ذات مكالمة

- يا أبي! الحب الحقيقي ما في فاعل ومفعول به. هذا هو جمال هذه العلاقة. علاقة عشق حقيقية... ما فيها غالب ولا مغلوب. ما فيها واحد من فوق وآخر من تحت. ما فيها مستغَل ومستغِل...

يبقى صامتاً يأكله الغضب. لا يستطيع الرد على هذا الكلام. لا يستطيع أن يتقبله رغم منطقيته.

صحيح أنها خيبته الكبرى والصحيح أيضاً أنه وإن تلوث منه الجسد فان روحه ناصعة طيبة. كان بإمكانه ان يعيش بوجهين، ويا ليته فعل، لكان وقاه من هذه الخيبة المريرة

ما اكثر خيباتك يا «أبو ايمن»[13]

* * *

الرجل «الزقاقي» الذي على يمينه يتوعد ابنه:

- ساعات ونصل الضيعة وعندها بتشوف كيف «التربايةِ» بتكون.

حتماً هذا الأب عانى الأمرّين من «تربية» أستراليا. ألم يعان هو أيضاً؟ ألم يضعوه في قفص الاتهام؟ ألم يحرجوه حتى أجبروه على الاستقالة من وظيفته التعليمية؟!...

«استعمال زائد للسلطة. تغليب العنفوان الشخصي». هكذا جاء في تقرير اللجنة التأديبية التي انعقدت إثر حادثته مع تلميذه علي. لو لم يكن علي، لو كان جايمس او مارك أو أندرو ربما كان تصرفه اختلف، أما مع علي!... طبعاً الامر يجب ان يختلف. هناك غيرة وإحساس أكبر بالمسؤولية

- بسببك سأترك المدرسة وأصير ابن شوارع Fuck you Mr. Nassar-

دوافعه كانت نبيلة، أراد أن ينتشل ابن السادسة عشرة من تلك العادة القبيحة قبل أن تتمكن منه وتوصله الى الإدمان. لغيرته عليه فقط ضيق عليه. حاصره... رصد كل تحركاته... أشبعه لوماً وتوبيخاً حتى انتهى به الأمر لطلب مقابلة والده. لم يدر بخلده أن النتيجة ستؤول الى هذا الحد من الخراب. وبدل أن يصحح اعوجاجاً أدى به الى الانكسار

* * *

مالت السيدة العجوز نحوه وسألته: كم الساعة؟

- الثالثة صباحاّ قال:

ذات ثالثة، بعد مرور أشهر قليلة على حادثة البوسطة[14]، كان محشوراً هو وزوجته وابنه أيمن وجيرانه من الطابق العلوي في مدخل الشقة الواقعة في بلدة قريبة من مخيم فلسطيني صغير شرقي بيروت اتقاء للنيران المتبادلة بين ميليشيا صغيرة في المخيم وميليشيات حزب الكتائب اليميني اللبناني المتواجدة في الجوار. جاؤوا «ليشدّوه»[15] كما شدّوا غيره من الفلسطينيين الواقعين في منطقتهم. خدمه الحظ يومها. كان قائد المجموعة المداهمة قريب جاره الذي فتح لهم الباب. عندما عادوا في المرة الثانية كان قد يُسِّر له من هرّبه إلى المنطقة الغربية.

ذات ثالثة أخرى، بعد سنوات قليلة من اجتياح بيروت، كاد يحصل له الشيء ذاته ولكن على أيد مختلفة هذه المرة. حرب بسوس جديدة قامت بين حلفاء الأمس، بين ميليشيا محليّة وفلسطينيين يقال أنهم موالون لأبو عمّار. هكذا!... كغضب إله يوناني داعر حل العداء دفعة واحدة. صار كل فلسطيني في الضاحية مستهدفاً وعدواً...

بعد وجبة عشاء دسمة، خرج إلى الشرفة يذرعها جيئة وذهاباً عندما عمت جلبة في الشارع المقابل ورأى نيراناً تشتعل في إحدى الشقق في البناية المواجهة. رن جرس الانترفون، صوت جاره أبو عصام الذي نصّب نفسه حارساً على البناية يقول:

- ولا يهمك خيي أبو أيمن.

حار في تفسير العبارة. قلبّها من عدة وجوه. بعد دقائق دق جاره يونس من الطابق العلوي الباب وأخبره أن حرب بسوس أخرى قامت في حيّهم، ليس على ناقة هذه المرة بل على كرة قدم. طلب منه ذلك الجار أن ينام عنده ليحميه من موجة الغضب العارمة على الفلسطينيين. في هذه المرة خدمه حدسه وشجعه إصرارها. كانت قد نضجت فلم تتمرجل كالمرة السابقة. بل وضعت له بيجامته في كيس وقالت:

- إذهب عند عمتي ام سليم في الحمرا. في الصباح الباكر نلحق بك.

زوجته «الساذجة سياسياً» لم تستوعب الامر.

معقول؟!... وعلى شو؟! ولصالح مين؟! وين كان مخبا كل هالحقد؟!...

- لن أبقى يوماً واحداً تحت هذه السماء الفاسدة... لن أسير خطوة فوق هذه الشوارع العاهرة. لن اتقاسمها مع من أذّلونا وفرضوا على أهلنا في المخيم أكل لحم البغال والجيف وسليق القبور... نذر علي ان أمشي حافية الى المطار اول يوم يُفَك فيه الحصار. تفو على كل العرب... بريئه أنا منهم حتى يوم الدين... ما لي عين تشوف حدا منهم

- عيب يا ثريا!... ما هذا الحكي؟!

- هذا الحكي من هذا الكلام... ماذا تتأمل من هكذا بلاد وهكذا بشر؟

- اين نذهب؟ كيف نعيش؟

- بلاد الله واسعة. جليد سيبيريا. جهنم الحمرا ولا هذه البلاد

- لا جليد سيبيريا ولا جهنم الحمرا يقبلوننا. قدرنا هون

- قدرنا... قدرنا. تخريف عجايز... نضرب ببلاد الله الواسعه لن نلاقي اصعب ما نحن فيه...

- يا بنت الناس!.. الموت بين الناس رحمه

- الموت الموت!!... كم من مرة رأينا الموت؟... يقطع هيك حياة! الموت فيها نعمة

- وحّدي الله يا إمرأة... قسمتنا هنا

- لن يكون لك قسمة بعد الذي جرى. أتظن أنه بعد اليوم سيكون لك قسمة في هذا البلد؟!.. أتتوقع ان تظل المفتش المحترم بعد اليوم؟!... الله يستر إذا ما لبسوك تهمة وطلعت من وظيفتك مطروداً ومهاناً

- وين نروح؟ كيف ندبر أمورنا؟!...

- نحن لسنا اقل من الذين راحوا... الى السويد، الدنمارك، النروج، ألمانيا، استراليا. يسوانا ما يسوى غيرنا. كله تشرد وضياع. هل نسيت أن لي عائلة في استراليا؟

- أنا ما نسيت، ولكن انتِ!... هل نسيتِ ماذا أجبت خالك عندما عرض عليك الهجرة عندما تهجَّرنا من المنطقة الشرقية

- لن أهاجر. هذه بلادنا ولن نستبدلها بأحسن البلدان. شو إلنا بأستراليا؟ شو بيربطنا ببناديق الإنكليز؟ هون أهلنا وناسنا وأبناء قضيتنا... وأيضاً قلتِ يا.. فقاطعته قائلة:

- كنت هبلة وغلطانة وحاطة على عيوني شاشة سودا. خدعني التكاذب الاجتماعي. ما شفت الخرى اللي بقلوب الناس.

- ندرس الموضوع اكثر (قال بصوت خفيض منكسر)

- لا درس ولا حصيده... قول (قُل) الله

- مغامرة خطرة... صعبه

- ليس أصعب من أكل لحم البغال وسليق القبور...

يوم طبعوا الفيزا على وثائق سفرهم اغتم حتى أنه بكى في سره

جرب ان يقنعها ويقنع نفسه

- نتـرّوى... شدة وتزول

- من شدة الى شدة. من ضاحية الى ضاحية. قل لي ما هو المستقبل الذي ينتظر ابناءك هنا؟

- إنها خطوة في المجهول

- خطوة في المجهول!... وهل انت تخطو في المعلوم؟... كل طالع شمس هو خطوة في المجهول

- الامر صعب علينا وعلى كل الناس. ندرس الامر أكثر.

- لا درس ولا حصيده. إذا اقتضى الامر إبقَ أنت هنا، فَتِّشْ على لغتك العربية. أنا آخذ أولادي إلى بلد يحترم إنسانيتهم. أجد لهم وطناً تحت الشمس كي لا يظلوا لاجئين كبش فداء لكل ابن حرام. آخذهم إلى بلد يقِّدر إمكانياتهم، يعطيهم فرص عمل فلا يضطرون للتشرذم كل واحد في بلد لا يعرف واحدهم الآخر إلا ببطاقة مجاملة في موسم الأعياد. دعك من كل هذا... هل تضمن لي أن يعودوا اليوم سالمين من مدارسهم؟ أي مستقبل ينتظرهم في هذه البلاد وجنسيتهم وصمة وفلسطينيتهم جرب؟

لو أنها لم تمت، أكانت ندمت على هذه الهجرة وقفلت عائدة إلى بيروت؟

أيار 2016

2- ذاكرة تتنفس فوق سرير أبيض

- أتذْكُر؟... كنْتُ دائماً أقول لك أنني سأموت كما جدتي. في نفس عمرها وبالطريقة الكريمة ذاتها. وحسب الدعوة التي كانت دائماً ترددها:

- «يا ربي لا تمَوّتْني ألا وتراب الحقل فوق «ديالي»

- كن طبيباً جرئياً... وأخاً محباً... إفعل ما يجب فعله (قلت له)

أخذ يدي بيدين مرتعشتين ربتها بحنو وملأ بريق حزين عينيه:

- معافاة يا أم مازن....

خمس وستون سنة، ياه ما أطولها من مسيرة! أبعد ما أتذكر منها، هذا الأخ الطبيب الراتع الآن عند سريري، طفلاً نائما في حضن أمه وفوق ذراعه قنينة ضخمة علمت فيما بعد أنها كانت إبرة مصل. لست أدري كم كان لي من العمر عندها، ولكن بالطبع أقل من خمس سنوات لأن ذلك المشهد ترافق بمشهد غريب هو الثلج. وعلمت فيما بعد، أن ذلك كان يسمى عام الثلجة وفيه تساقط الثلج على شواطئ البحور.

في غرفة طينية متواضعة أقصى حدود التواضع كانت عمتي أم أديب تتربع على طرّاحة بمواجهة أمي.

-أيوا، وبعدين!... شو قال الحكيم

- قال الحصبة غايره بـمصارينه... وإذا ما ظهرت على الجلد بيموت.

كانت كلمة بيموت مفردة جديدة على سمعي.

- عمتي شو يعني بيموت؟

- يكفينا شرِّك!.. قومي إركعي قدام صورة العدرا وقولي يا عدرا إشفي خوي[16]

لا بد ان كلمة بيموت شي بشع. وشو يكفينا شرك كمان؟ ولكني قمت وركعت قدام صورة العدرا ورددت كالببغاء: يا عدرا إشفي خوي

تقول والدتي إنها ظلت شهراً، ثلاثين يوماً بنهاراته ولياليه، حاضنة سمير وإبرة مصل رايحة وإبرة مصل جاي، حتى بالنهاية فتح عينية وقال إمبو (أريد ماءً).

يومها لم يكن هنالك أب في عائلتنا. كانت عمتي المتربعة فوق بساط وضيع، تضم يديها إلى حضنها وترفع رأسها صوب الأعلى وتقول: الله يردك سالم لمرتك وولادك يا طنوس

- عمتي مين طنوس؟ ومين مرتك وولادك؟

تنهدت عمتي. شدتني صوبها، قبّلت رأسي وقالت:

- طنوس أبوك يا روحي. وأمك مرتو. وأنتِ وسمير ولادو.

- منذ تلك اللحظة رحت أرسم صورة لطنوس. هل هو بسروال يندلق بين فخذيه مثل عمي أبو أديب؟ أم ببنطلون مثل زوج خالتي نجلا؟ هل يحمل لوز وسكر في جيبه مثل جدي أبو زكي؟ هل هو بشارب أم بدونه!!... كنت أتمنى أن يكون مثل زوج خالتي مهيوب وحاسر الرأس وخواجة، ليس كجدي وزوج عمتي المتسربلين بالحطة والعقال والقمباز.

زال الخطر عن أخي سمير وما عادت عمتي تزورنا باستمرار. ولكن أمي ظلت حزينة وتنوح طول النهار. لا أستطيع ان أسألها عمّا بها. فهي دائما في دنيا غير دنيانا. وان حدث وأجابت كان جوابها مقتضباً كشراً كوجهها الذي بدأت أكرهه. كانت تأخذنا (انا وأخي سمير) كل نهار أحد إلى الكنيسة وتطلب منا أن نركع أمام الهيكل ونقول: يا حبيبي يا يسوع رَجّعْ بوي بالسلامة. كان أهالي القرية يجتمعون بعد صلاة يوم الأحد في باحة الكنيسة، يتحلقون في مجموعات صغيرة. يعلو

الصياح من هذه الحلقة، والشتائم من تلك، والضحكات من أخرى. وكنّا نحن الاطفال نتراكض ونتصايح.

- ابناء مَن هؤلاء الاولاد؟ سمعتُ امرأةً تسأل أخرى

- أولاد طنوس الفلسطيني (أجابتها).

أعجبنـي الوصف، وصرت اذا سألوني بنت مين انتِ يا بنت، أقول باعتزاز: أنا بنت طنوس الفلسطيني. كنت أمسك بيد أخي سمير ونقف متفرجين عندما سمعنا زوج عمتي أبو أديب يصرخ بوجه زوج خالتي ويقول غاضباً

- طنّوس مجنون!... انت وأمثالك الجبناء المجانين... طنوس شرَّفنا كلنا. لولاه لكانت كفربرعم عرة بين القرى.

عندما كبرت، علمت أن طنوس كان يحارب مع الثوار عام 1948 وأنه احتل مع خمسة من رفاقه دبابة في معركة مع العصابات الصهيونية في بلدة كمب النبي يوشع وأنه لم يسلِّم قط بسقوط فلسطين وظل يقطع الحدود لسبب لا يبوح به. قد يحمل عند عودته «صُرَّة» من تين أو زيتون أو سبلات قمح يعرضها بطقوس وشعائر كالقرابين المقدسة. وأنه ذهب ولم يعد منذ اكثر من سنة حتى تبين أن العصابات الصهيونية التي احتلت بلده سجنته بتهمة تهريب السلاح للمقاومين المتخفين في التلال على الحدود مع لبنان. أتذكر ايضاً أنها قامت في إحدى الليالي ضجة في غرفتنا الفقيرة التي لم تعرف قبلاً أي ضجيج. حتى أختي المولودة حديثاً ما كنا نسمعها تبكي.

- ظلت من وقت ماخلّفِتْها مغمضة عينيها وما فتّحَتْ إلا لما إجا طنوس (تقول أمي).

لا أتذكر تفاصيل عودته. لا أتذكر إذا كنت قد استأت أو فرحت عندما بدأ هذا الرجل المدعى «بوي» يشاركنا الغرفة والفراش. أتذكر فقط أن بيتنا الذي كان يتألف من غرفة واحدة، صار ضاجاً بأناس غادين رائحين. في السهرات يتحلقون حول موقدة بدائية في زاوية الغرفة الترابية يعمي دخانها عيوننا، وهو في وسطهم، يحكي، والعيون شاخصة نحوه بذهول. تقهقه أحياناً، ويعتريها صمت ووجوم ثقيل احياناً أخرى.

طنوس بالنسبة لي أيام المراهقة فارس أحلام. غيابه عن حياتنا أسهم في صنع صورة له على مزاجي. يعمل في دولة قطر ليعيل أفواهاً تزداد كل عامين او أقل. كان يقضي بضعة أسابيع من السنة معنا. فترة قصيرة ولكنها كانت كافية لأغرم به. فحديثه حلو جذاب وشخصيته مرحة، وحواديته ذات نكهة مميزة بغرابتها وسحر سردها. هو ليس كالبومة أمي. ولا مثل جدي الذي لا يناديني إلا بـ «ولِك» و«يقصف عمرك» و«انقبري فِزّي»... كنت أشبهه في أمور كثيرة. أحب عبد الناصر، وأطرب لسماع تلاوة القرآن، وأومن أن عودتنا قريبة، وأثق بالناس واتخذهم أصدقاء بسهولة ولا أندم إذا ما خذل أحدهم صداقتي. ومع ذلك، ففرحتي بعودته تعود بالدرجة الأولى للهدايا التي كان يجلبها لنا من السفر ونتباهى بها أمام أبناء الجيران ورفاقنا في المدرسة. جدي ما كان يحب إجازة والدي. ففي اثنائها يتحول البيت الى هرج ومرج. نلعب نحن الصغار ونمرح على هوانا ونسهر الى ساعة متأخرة، وضيوف لا ينقطعون طوال إقامته.

* * *

غاب أبو سمير عن حياتنا في عمر مبكر وبشكل دراماتيكي.

في ليلة كانونية ليلاء- كليلة مخائيل نعيمة في بيادره- والحرب اللبنانية في أشهرها الأولى استفقنا على صوت مدافع ورشاشات تخرق صمت الليل والمطر.

إنهم يقصفون المخيم قال والدي بغضب. همّ بالخروج. سدت والدتي الباب في وجهه وقالت بحزم لم نعهده فيها من قبل:

- إعقل يا طنوس. عندك كومة لحم. أي تهور نعدمهم كلهم بلحظة!... بيتنا ريفي، سقفه من تراب. قذيفة صغيرة كفيلة ان تجعله مقبرة جماعية.

- يلّا طنوس، خلينا نروح عند الجيران. بيتهم أكثر أماناً. الأولاد خائفين.

لأول مرة لم يجادلها وقاد الثلاثة الصغار أمامه إلى بيت الجيران. تكوموا حول مدفأة من المازوت تملأ رائحتها البيت والجوار. اختلطت أصوات المدافع بأصوات الرعود الغاضبة، وامتزج لمعان البروق بلمعان القنابل عند انفجارها. اندست الصغيرة رنده في حضن والدها مُروَعة كقطة داهمها وحش مزمجر غاضب. وراحت جارتنا تذرع الغرفة بخطوات عصبية، تفرك يديها

ببعضهما، وتلهج بسلسلة من الأدعية. أبو سمير يستنبط شيئاً من جعبته الفكهة في محاولة منه لتشتيت انتباهها فترمقه بنظرة جانبية مواربة.

- يا رب استر يا رب استر... الله يجيبك يا أبو طوني... الله يجيبك يا أبو طوني

مالت عزة على أخيها نعمان وقالت: وليش يعني أبو طوني؟ البابا هون ما بيكّفي؟

يضع نعمان يده على فمها ويقول هامساً:

- انقبري أسكتي. بلا فلسفتك

نقرة عنيفة على الباب.

يندس نعمان بجانب طوني ويتظاهر بالنوم. تتشبث رندة ببيجامة والدها وتتطلع عزة باندهاش وفضول صوب الباب...

- مين؟ سألت أم طوني

- كتايب... قال صوت أجش.

وما أن ازاحت المزلاج، حتى اندفع شخص بنظرات زائغة قلقة وبلباس مرقط وبصليب خشبي يتدلى فوق صدره، وسلاح أوتوماتيكي جاهز للانقضاض على فريسة ما

- نريد أبو سمير...

انبرى والدي عارضاً نفسه:

- أنا أبو سمير. أمر!...

بعينين زائغتين، بصوت مرتجف متحشرج أجش، وبلهجة تصطنع رباطة الجأش قال:

- الريس طالبك.

لم ينبس ببنت شفة. ولا طلب منهم مهلة لتغيير بيجامته. رمق رندة بنظرة خاصة ومشى معهم دون أدنى ارتجافة أو تردد.

- أنت زوجته؟ قال رفيقه:

تتحفز لتجيب ولكنه يسبقها بالقول: تفضلي معنا.

* * *

صبيحة اليوم التالي، عادت أم سمير من بيت الكتائب زائغة النظرات كمن به مس.

- ماذا جرى؟ وين البابا صرخت رندة؟

ظلت زائغة النظرات تحدق في الفضاء ولا ترى، تسمع أصواتاً كهدير الموج ولا تفقهها

هزتها عزة بعنف.

- وين البابا؟ ليش ما إجا معك؟ شو صار معكم؟

بصوت خافت كأنه الهذيان قالت كالمخاطب نفسه:

- عصبوا عيني بعصبة سوداء... سمعته يقول: يا كلاب... يا جُبَنا... يا مفتريين... يا وزاويز. أريد رئيسكم. أين رئيسكم؟

* * *

سقط المخيم الفلسطيني الصغير تلك الليلة بأيدي الميليشيات اليمينية. لن أحكي عن معاناة أهله وما أصابهم في ذلك اليوم الكانوني القارس من قتل وسحل وتعذيب، فأنا في عجلة من أمري وأريد لذاكرتني أن تزفر ألمها قبل أن يفاجئني قضاء الله.

- رأيت ثلاثة او أربعة مسلحين يدفعونه أمامهم إلى خارج الشقة (المكتب) وبعد ربع ساعة سمعت إطلاق نار. (قال باسم احد المعتقلين الذين أفرج عنهم).

وزاد آخر:

- وأخذوا حنّا كمان... وبعد ربع ساعة سمعنا إطلاق نار.

- كان الدور آت عليّ (قال أبو صلاح). انقذني الحظ. صحا ضمير القبضاي. سمعته يقول:

- لن أنفِّذ أي إعدام، إلا بأمر من القيادة.

* * *

أعترف أنني حتى تلك اللحظة لم أكنْ أكنّ لتلك الأم أية مشاعر حب تذكر. هي على طرفي نقيض من أبي. تُفضِّل الصبيان على البنات. تهرع لخفض صوت الراديو عندما يرتفع بالآذان. تتضايق من أصدقاء أبي الذين يأتون لزيارته من المخيم. جماعة فتح الشراشيح الزعران كما كانت تقول من وراء ظهر أبي. تزجرني بعنف عندما أدخل في سجال مع جيراننا وآخذ صف الفدائيين. ولكن حالة الذهول التي رأيتها بها ذلك اليوم، فجرت فيّ مشاعر حب وحنان وشفقة كنبع شق قلب الصخر واندفع جياشاً في صحراء قاحلة. المرأة المذهولة التي كنت أظنها بلا عواطف، لا تعرف إلا التذمر والتشكي وندب الحظ العاثر، هامت على وجهها تبحث عن ذلك الزوج الذي ما سمعتها يوماً تناغيه بكلمة رقيقة. اخترقت كل تقليد وقواعد وأصول. لم تأبه بالحواجز المعادية التي كانت تقتل الناس على الهوية. قصدت كل أمراء الحرب في محيطها. تذللت لأحقرهم. من أين جاءت بكل تلك الجرأة وكل هذا الحب لست أدري. وإذ يئسَتْ وصدقت أنه راح (صفّوه)، راحت تجوب شواطئ البحر المزمجرة المهجورة في ذلك الشتاء القاسي. راحت تتفقد الجثث التي تلفظها تلك الشطآن:

- واحدة منتفخة كما خلقتني يا الله... (تقول على حياء بصوت هامس ذليل)

- واحدة أكل السمك عينيها. (تقول وهي تغطي وجهها بيدين معروقتين زادهما الهزال زرقة)

- وغيرها مسلوخ بعض لحمها. تقول رافعة يديها بالابتهال: (نجينا يا الله)

استفيق عليها في دهمة الليل البارد منزوية في ركن الغرفة تندب وتولول:

- يا شحاري يا شحاري!... إذا كان مات أكون انا السبب. وقفْتُ متل الهبلة. لو أني استعطفتهم. لو أني تذللت لهم. لو أني عرضت عليهم فدية... لو أني قلت لهم أتركوه وأنا ادلكم على مكان السلاح. أنا أدلكم على باقي رفاقه وأين يختبئون. لو لو لو، تعدد وتتلوى وتُعصِّب رأسها كي لا ينفجر.

* * *

مرّ ربع عقد على غيابك يا أبو سمير وأنا لا أزال غير مصدقة أنك رحت: رفضت ان ألبس السواد واعلن الحداد. أغضب الأمر أم سمير في حينه ووصفتني بالعاقة. قلت لها:

- روحي إلبسي السواد وحدك. أنا لا أصدق أنه مات. ما زلت أراه قادماً متل الطير الأخضر يمشي ويتمخطر يقتل خالتو دباحتو ويرمي في حضني[17] اللوز والسكر.

رنده، ثامِنتُنا المدللة، «قريد العش»، كما كان يسميها أبو سمير، لا تزال تسترجع نظرته الأخيرة وتتساءل عمّا وراءها

- كأنه كان يودعني. كأنه أحس أنه سيترك عصفورته الصغيرة لليتم المبكر.

- بل كان يقول لك لا تخافي إني راجع.

- عاتبة أنا عليه يا عزة. لماذا استهان بحياته؟ ألا يعرف أن حياته لا تخصه وحده؟ لماذا لم يهرب من الباب الخلفي؟ لماذا تركني لليتم؟

- رنده!... ماذا جرى لعقلك!... كأنك لا تعرفين والدك... تريدين منه أن يهرب كالجبناء أو يتخبأ في الجحور كالفئران. أو يعرّض البيت الذي استضافه لانتقامهم الأرعن؟

- طز بالشهامة، بالكرامة، بالشجاعة. يُتمي أكبر منها جميعها...

* * *

صحيح انك مت يا أبو سمير!... خذلتني... جعلتهم يشمتون بي!... صحيح انني أنتظر السراب!... أببساطة تم ذلك!... أم أن الشمس كسفت، والأرض زلزلت، والسماء غضبت في تلك اللحظة الجهنمية؟!... هل أسلمت الروح أم ان الملائكة حملتك جسداً وروحاً الى السماء كالقديسين؟! ليس كثيراً عليك ان تصعد إلى السماء كالقديسين، فأنت مثلهم تنضح حباً وتضحية ووفاء وتسامحاً. بل إنك لَتتفوقُ عليهم. فمحبتهم مقايضة. يشترطون مقابلها خضوع وإيمان وطاعة. أما محبتك ففيض وبلسم لا ينتظر رجاء ولا يسأل عن ثمن. انا لست آسفة لأنه لا مكان لجثتك في هذه الأرض النجسة. أمثالك لا تسعهم الأرض ولا تليق بهم القبور. أمثالك مُلْك الكون. ملك الهواء الطلق والشمس المتوهجة والغمام المعطاء. أمثالك أكبر من أن يأكلهم الدود ويتحللوا تراباً. أمثالك تحتضنهم السماء وتجعلهم نجوماً ينيرون العالم. و....

واستفقت على يد سمير الحانية وهي تربت فوق خدي:

- الحمد لله على السلامة يا أم مازن

كانون الثاني 2013

3- جدي ابو زكي

في هذا اليوم سيوارى جدي أبو زكي الثرى عن عمر قارب قرناً من الزمن. لن أستطيع حضور جنازته لشجار عائلي. حرب بسوس على قال وقيل، كلام نسوان كما يقال لتسخيف المسألة. كلام النسوان هذا فتح جرحاً عمره عشرين سنة بالتمـام ولم أزل أعيش كوابيسه الجارحة. يوم غيبت الحرب القذرة والدي وتهجرنا من بيوتنا.

يؤلمني العداء، انسى وأسامح بسرعة. طبعاً ليس في حقي في فلسطين ولا بالتخلي عن حلم العودة. ولكن امرأة خالي زجت نفسها بين فئة أعداء فلسطيني وحلم عودتي.

جدي أبو زكي يحضر رغم النعش البهي الأسود المنقوش بماء الذهب وهو يعد قهوته الصباحية. رائحة قهوته بالهيل تتفوق على رائحة البخور القوية التي تتصاعد من عدة مخابر في كنيسة مار شربل في بنشبول إحدى ضواحي سدني.

يقعد جدي على كرسي قش واطئة أمام بابور كاز هادر ويضع «ركوة» القهوة المليئة حتى «خناقها» بالماء وقليل من السكر. يرقب بقبقة الماء بابتهال لعدة ثوانٍ ثم يزيد البـَن (مسحوق القهوة). وبطقس كنائسي مقدس يرفع «الركوة» عن النار ثلاث مرات لا تزيد ولا تنقص. الآب والابن والروح القدس يقول والدي من الغرفة المجاورة ساخراً دون أن يرفع رأسه يقذفه جدي بشتيمة يختلف عيارها من يوم لآخر

- إخفض صوت هالراديو يا كافر قد يقول له

- ليش مش كلام الله؟

- كلام الله ولّا كلام الشيطان أنا ما بدي أسمع.

- بس إسمع!... بشو بيختلف هاذا الكلام عن اللي جاء في الإنجيل

- يا قرد شو بتجالص. حل عن ربّي إسمع لحالك.

ثم يقوم إلى الباب الفاصل بين الغرفتين فيقذفه بقوة وتنطلق من فم والدي ضحكة هستيرية لا أعرف إن كان ما فيها ألم أم استهزاء أم مرارة... وتصل غضبة جدي ذروتها عندما يدير والدي الراديو على إذاعة صوت العرب ويطرب لخطاب محمود سعيد الحماسي المجلل.

باسم الأمة تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس شركة مساهمة مصرية

- .. إمك و..أم الأمة يقول جدي غاضباً.

يضحك والدي كعادته ويقول هات صب لنا قهوة عمي

- العمى يعميك؟ إسا صرت عمك؟ خذ «اتمهرى» ولو إنك ما بتستاهل.

- ولك يا كافر يلعن أبو اللي نفضك. ولك أبوك كان روح قدس من وين جايب كل هالكفر. يلا انقبر قوم فِز روح على شغلك.

يعب جدي من سيكارته اللف نفساً ويروح في نوبة سعال طويلة

يهدر صوت والدي:

- ولك يا مرتا وين الزوادة. ودون أن تنبس بكلمة تمد يدها بصرة فيها ما تيسر ليكون زاد طنوس لذلك النهار

تتهادى جدتي ضامة بين يديها مسبحة الوردية متمتمة آخر أبياتها.

- إرميها هـ«السايبة» تقول لجدي قاصدة السيكارة.

- انت خليكي بحالك. صلي وصومي وما تشربي قهوة حتى تعيشي مية سنة

تصمت جدتي وتكمل طريقها إلى بيت الخلاء الخارجي. أسمعها تتمتم فيما هي تعالج الباب المخلع بكلمات غاضبة فهمت فيما بعد أنها كانت تلعن عيشتها مع هذا الزوج العصبي المزاج الغاضب أبداً.

- هو ما كان هيك لمّا كنّا بالبلاد[18]، تغيّرت أطباعو بعد هاللجأة. وتزيد:

- قلبه طيب وحنون وكان يعاملني كأني ملكة. عمري ما ذهبت إلى زرع أو حصيدة ولا قطف زيتون ولا حواش تين. لما أحبل يستنتني. أمه وأخته بيشتغلوا كل شغل البيت ولما اَخلِّف، إذا كان المولود صبي خود يا دلال....

تهز خالتي الصغرى رأسها مستنكرة وتتمتم بصوت خفيض:

- بس لمّا يكون المولود صبي!

عندما كبرت عرفت ما كانت تقصده خالتي بكلامها هذا، وعرفت سرّ استهزائها بقول جدّتي. فهي الأنثى الخامسة ولما ولدتها جدتي، صال وجال وسب بطن أمها الذي لا يجلب إلا المصايب. ولكنني من ناحيتي ما وعيت إلا وجدي يدلل خالتي حنة ولا يناديها إلا ب: (يا حبيبتي يا حنونة).

بعد أن كبرت عرفت السبب، خالتي الحنونة أصبحت معيلة الأسرة بعد النكبة. كانت في الثانية عشرة من عمرها عندما سقطت فلسطين.. ومن يومها وهي تعمل خادمة في بيوت وجهاء بيروت. جدي ابن العز والدلال لا يحسن عملاً. صحيح هو فلاح ولكنه ما مسك يوماً معولاً أو منجلاً أو نير فلاحة. هو الابن الوحيد لرجل يملك أرزاقاً كثيرة يؤجر بعضها ويستخدم أُجراء للبعض الآخر.

على غير عادتها سحبت جدتي كرسياً وجلست مقابل جدي، وفيما هو يلّف سيجارته ويلحس طرف ورقة اللف ليضمها إلى الطرف الآخر يقول باستهزاء:

- خير انشالله

- شفت أمي بالمنام اليوم

- يعني؟

- كانت زعلانة مني.

- بتكوني متقّلة بالعشا

- لأ! مش متقلة بالعشا... أمي زعلانة مني لأني معادية أختي.

- يلعن أبوك على أبو اختك. هاي أخت هاي!.. وهذا عديل هذا!.. هدول عقارب مش قرايب. وراح بموجة سعال حادة احمر لها وجهه وحاجباه الأشقرين وجحظت عيناه. أدارت جدتي ظهرها صامتة جامدة القسمات وقالت بهدوء وبصوت محايد:

- صارت طيزك هارّة وبعدك بتزعق متل الولاد الصغار.

حتى اليوم ما زلت أفكر ماذا كانت تقصد جدتي بعبارة (طيزك هارّة).

* * *

الآن يكون جدي في طريقه الى القبر. أرافقه بخيالي: سيارة دفن فارهة يتبعها رتل من السيارات المصاحبة تتهادى بصمت... الآن يحملون نعشه على الأكتاف، أحفاده أصهرته أبناؤه يتدافعون كل يريد أن يكون له يد في رفع النعش.. الآن يهيلون التراب فوق نعشه أنشج ببكاء صامت... ينفض الجمع خاشعين... نشيج صامت... شهقات خافتة... صوت أمي يخترق الصمت:

- سلم على طنوس يا أبو زكي...

يمتلئ قلبي بالندم... العن كبرائي... كان يجب أن أكون هناك... كان يجب أن أودعه وأوصيه أن يسلم على جريس وطنوس وربيع وأبو ربيع وأم ربيع... كم أنا جبانة! كم أنا جبانة! كم أنا جبانة وقاسية وناكرة جميل!..

* * *

أحب جدي أبو زكي مع أنه نادراً ما كان يدللني ولكنه كان يتباهى بي في جلساته. كان يدلل أخي يقعده على ركبته ويطعمه كعصفور مدلل ويناديه ب يا حبيب قلبي، يا روحي... لا أحقد عليه لتمييزه هذا، كل الرجال الكبار في مجتمعنا يفعلون ذلك.

أحب جدي أبو زكي... كان يرعانا عندما كنا صغاراً. فوالدي في تلك الأيام كان يعمل في الخليج ووالدتي لا تجيد شيئاً من أمور الحياة إلا الطبخ والغسل وجلي القدور... أحب جدي أبو زكي وأشفق عليه. كنت في بعض الليالي وأنا في طريقي إلى بيت الخلاء، أسمع نشيجه. مرة سمعته يقول: سامحيني يا جوفان (يعني جدتي).

أحب كبرياء جدي واعتداده بذاته المتلبس بالغضب. أحب طبع جدي الحاد ففي رنين كلماته حنان ما بعده حنان. أحب جدي أبو زكي اليوم اكثر من أي يوم مضى. سامحني لإساءة فهمي لك يا أبو زكي...

4- ما لمع لم يكن ذهباً

انتهت الأسابيع الأولى من وصولهم إلى أستراليا. استجابة لدعوة هنا ورد دعوة هناك. كل داعٍ حرص على أن يقدم الأفخم والأجود والأكثر تنوعاً. كل غمز من طرف خفي على الآخر. تشتد الغمزة أو تضعف حسب تجاوب أو عدم تجاوب ابو أيمن وزوجته معها. والله كأنهم ما فارقوا قراهم أبدا. الكنفشة ونفخ البدن هو هو إن لم يكن أشد وأوضح. وهو بدوره عليه ان يدور في هذه المهزلة: يجاري طقوسها. يتصنع اليسر. يبذل من مدخرات عزيزة أرادها سنداً له في أيامه الأولى من غربته.

أسابيع و"يَنْفَخِت الدف ويتفرق العشاق" ويعود وحيداً يصارع ليجد لنفسه ولعائلته موطئ قدم في هذا العالم الجديد

الهمّ الأوّل كان اختيار مدارس الاولاد. كلهم نصحوا وشددوا على مدارس الجالية

- مدارس الحكومة فيها دَشْرة (قال ابن خاله)
- مدارس الجالية فيها نظام تكمل زوجته
- يتربّى الأولاد على الأخلاق والدين واحترام الأهل وخوف الله (برتفع صوت أحدهم)
- روكز ما سمع النصيحة علّم اولاده بالمدرسة الرسمية. حبلت بنته بالحرام (قال مهنّا)
- وابنه صار حشاش أضافت زوجته
- هذا شيء لا يحصل في مدارس الجالية، همهم أكثر من صوت

- خالو!.. أنا بكرا أروح معك لعند مدير المدرسة... و.. و.. و...

هو الملحد مذ خلقه ربه عليه لبس لبوس التقوى. هو الذي حفظ عن ظهر قلب منذ أيام المراهقة كل ذميمة قالها في رجال الدين أحمد فارس الشدياق وجبران خليل جبران وتلاها على صغاره مذ بدأوا يعون الكلام، عليه الآن أن يجلس مضموم الركبتين مطأطئ الرأس أمام من يُمثِّلهم ليثبت أنه مؤمن أصيل!..

ما أوجع هذا الموقف!... لو انه ارتضى لنفسه هذا الانكسار من قبل، لما كان الآن في استراليا. لو انه ارتضى ان يمالئ مسؤول الميليشيا في حيِّه، لكان الآن يتمتع في شقته التي أحبها وتباهت زوجته بها علىجيرانها وأقاربها... بماذا يختلف هذا المدير عن «ابو عصام» الذي رفض أن يمالئه ليحميه من زعران الميليشيا، وفضّل تسلُّل المهزومين!..

- هل كنت يومها مخطئاً يا سعيد؟ وان كان ما فعلته هناك خطأ، فهل ان ما تفعله هنا صواب؟!. ما الفرق في أن تنحني لرجل دين لا تؤمن بطقوسه وأصنامه ومقدساته أو لميليشياوي منفوش اعطته بندقية خرقاء تفوقاً جسدياً عليك؟!..

- لا!... الأمر هنا مختلف. مستقبل الاولاد متعلق على هذه المسرحية السمجة. دقائق معدودة ويسدل الستار عنها.

- هونـِّها تهون يا أبو ايمن (يخاطب نفسه)

- والله إنها لا تهون. إنها كمثل سلخ الجلد بماء النار.

خفف الوطأة عليه تفهّم زوجته. هي لم تحدجه بنظرتها الغليظة وهو ينزع جلده. كانت منهمكة بوضعها الجديد: بإتقان الانكليزية، بالتعرف على الأسواق وأسرارها، باكتشاف هذا العدد من المتأسترلات، بخط التلفون الذي لا يخزلها وفي المياه الساخنة الحاضرة دائماً

- محظوظ انت يا أبو أيمن يقول نسيبه. تعرف اللغة. لم تعانِ مثلما عانينا.

يصمت... يسرح في همّ لا يستطيع البوح به. لو ان هذا النسيب يعرف أن مدخراته تشح وأن ما يقدمه الضمان الاجتماعي الذي يتباهون به لا يفي بأقل حاجيات العائلة والمناسبات الاجتماعية التي لا تنتهي لما قال ما قاله... أف ما اكثر مناسباتهم في هذا البلد!.. اليوم خطبة «سام» وغداً زواجه وقبل الزواج وبعده حفلات وحفلات: سهرة العريس، كتشن بارتي Kitchen party للعروس، عقد القران الديني، حفلة استقبال بعد عقد القران. و كل مناسبة تستدعي هدية. غداً تضع "سامنتا" مولودها البكر. حفلة ما قبل الولادة (shower party). زهور على المستشفى. تهنئة بعد الخروج من المستشفى. ومثلها في الموت وأعياد الآباء والأمهات فالعم الكبير أب، والخالة الكبيرة أم، وهكذا...

لا بد من إيجاد عمل أي عمل، أي عمل حتى ولو عامل تنظيفات... قدم عشرات الطلبات من أرفع الوظائف إلى أحقرها، ولم يستدعَ لأي منها. قليلون تكرّموا وردوا عليه متأسفين، والأكثرية تجاهلته.

- حظك سيء أبو أيمن يقول جاره أحمد الذي غيّر اسمه إلى مايكل ويضيف:

- البلاد في ركود اقتصادي (رسشن) ويشد على حرف النون... قَسَماً بالله، أنا ما احتجت يوماً لتقديم طلب. كانت العروض تنهال عليّ متل الشتا.

رحلته نصف الشهرية إلى مركز الضمان الاجتماعي لتقديم طلب الإعانة المادية كان أكثر المواقف أحساساً بالمهانة. وقوفه في طابور العاطلين عن العمل يخجله... تدهشه لامبالاة رفاق الطابور لهذا الوضع المهين.

- حقك أخي ابو أيمن يقول له نسيبه. كثيرون يدّعون البطالة. يتباهون في الاحتيال على النظام. يتصنعون المرض. ينفذون طلاقاً كاذباً. يعملون بالكاش cash money ويقفون في الطابور بكل عين وقحة ليقدموا «الفورم».

- بماذا يختلف هذا الطابور عن طابور إعاشة الطحين للاجئين؟ (قال)

- لا. لا. ما تغلط أستاذ. هذا حق لك ما حدا إلو عليك منيّة. هنا الموظف لايشخط ولا ينخط ولا يتركك تحس انك ولي نعمته. على العكس، يشكرك عندما يستلم الطلب منك.

- كلمة ميكانيكية جوفاء لا تحمل ذرة من دفء معانيها (يقول في سره)

كان يعود في كل مرة مغتسلا بعار شديد. يقضي نهاره مكتئباً، لا يكلم احداً، ولا يرد على مكالمة هاتفية، ثم يأتي اليوم الثاني ليبدأ يوماً جديداً على أمل الانفراج.

أحد تلامذته الذي سبقه إلى هذه الهجرة يقول ناصحاً:

- انتسب الى الجامعة يا أستاذ سعيد. هي سنة واحدة تأخذ بها شهادة دبلوم تربية تمكنك من الحصول على وظيفة مدرِّس في كل مدارس أستراليا. سوق العمل في هذا المجال أفضل بكثير من أي سوق آخر.

يخفض رأسه ذليلاً ويبقى صامتاً...

لا بدّ مما ليس منه بدّ يا سعيد: هاجرت مهزوماً، والمهزومون لا يختارون بل يُفرَض عليهم...

5- كم كان العبور صعباً

كل ما في حلقها مُرٌّ. لا شيء يسر القلب في هذا الجنوب البعيد. تصطنع الهدوء كي لا يشمت الشامتون. تنتظر شرارة فرح تقدح في سماء حياتها الداكنة فلا تلقى إلا الخيبات

- لا فائدة من الشكوى يا ثريا؟

ولمن تشتكين أيتها التعسة؟ وكيف تشتكين وأنت التي سعيتِ بكل جوارحك إلى هذه الغربة. نسيتِ.. كيف انفجرت به كبركان هائج يوم قال لك نتمهل ندرس الموضوع:

كيف تلاشى انبهارها بمجتمعها الجديد سريعاً!... كل شيء في حلقك مُرّ يا ثريّا. نزهة الصباح الهادئة بين الأشجار والأزهار وزقزقة العصافير وابتسامات المشاة الودودة، فقدت رونقها. صبحيات الجارات اللواتي كن يتحلقن حول قهوتها الصباحية متسابقات لكسب ودها أمست باهتة. التلفزيون الذي بهرها ولقيت فيه نافذة على عالمها أصبح مملاً ومواضيعه تافهة مكررة. شبه الوظيفة التي منّ عليها قريبها تشعرها بتفاهتها وقلة قيمتها في الحياة. سعيد يعيش في قوقعته، يلتقيان في أوقات متباعدة في سرير لم يبق به إلا رماد عادة ميكانيكية.

لا يحق لك أن تتذمري يا ثريا فأنت من دفعت إلى هذه الهجرة. أشكري ربك أنه لم ينفجر في وجهك غاضباً لاعناً الساعة التي انقاد بها لمشيئتك. سحقته الغربة ضيعت كل مكتسباته الوظيفية والاجتماعية. أعذرني يا حبيب العمر.

يؤلمها ما آل إليه الأبناء. انفرط عقدهم. كلٌ ينزوي/تنزوي في غرفة وإن تحادثوا فبإنكليزية فجة يكثر فيها السباب والانفعال والصوت العالي. اختفت تلك اللهجة الودودة التي ربّتهم عليها. كفوا عن التساؤل «شو طابخيتلنا ام أيمن اليوم». صاروا إذا سألتهم يجيبون: «مش جوعانين». لم يعد

يهرع اليها ذاك الصغير متباكياً لأن رفاقه شاكسوه، ولا عادت لمى تغلغل راسها في صدرها وتقول حبيني ماما. حتى أيمن ما عاد يخصها بحضنة حنونة ومجاملة عابرة. بالامس فقط كانت مصدر فخرهم ومثلهم الاعلى.

- أنا بدي اصير متل ماما، شيك واروح عند «الكوافور» كل أسبوع (تقول لمى).

- أنا بدي أكون كريم وطويل بال متل ماما. أعطي ولادي مصروف كبير وما أصرخ عليهم وأضربهم إذا غلطوا.

منذ أيام أقام أيمن الدنيا وأقعدها لأنها فاجأته وذهبت لإحضاره من المدرسة كي توفر عليه مشقة التنقل بالباصات. صرخ بوجهها وكأنها ابنة صغيرة كسرت دمية غيرها

- شو عم تعملي هون؟!... هل أنا صغير؟ هل أنا عاجز؟ خيخة لا استطيع تدبير اموري؟!... تريدين ان يقولوا دلوع امو؟!...

قبلها بأسبوع جرحت لمى كبرياءها بوقاحة أذهلتها. حصل أن وجدت، فيما هي ترتب غرفتها، رسالة من المدرسة تدعو أولياء الأمور لاجتماع مع الهيئة التدريسية للتباحث بشؤون أبنائهم. وعندما رجعت لمى من المدرسة، لوّحَت لها بالرسالة قائلة: ما هذا؟ وقبل أن تكمل جملتها اندفعت نحوها هائجة كلبوة مكلومة

- ما شأنك انت بهذا؟ واختطفت الرسالة من يدها

- ما شأني!... تأدبي يا بنت. هذا ما علموك إياه في مدارس أستراليا؟

- إصحي تكوني مفكرة تروحي على الاجتماع!..

- ولـمَ لا.

وانفجرت لمى غاضبة والكلام يتطاير من بين شفتيها كطلق البارود

- ولـمَ نعم؟ لتتباهي بتسريحة شعرك الباريسية وفستانك الشيك كفستان الملكة اليزابيث؟ وبأي لغة تتكلمين مع الناس؟ بلغة شكسبير المنقرضة؟

- إخرسي. من أين أتيت بكل هذه الوقاحة. من علمك الإنكليزي يا بنت الكلب!..

- وتسمي هذا انكليزي. هذا انكليزي مات وشبع موت.

أدارت ثريا ظهرها تاركة الغرفة وقالت بلهجة خفيضة حزينة:

- أتخجلين بي يا لمى!...

أمر الاولاد كله كان بكفة وأمر سعيد بمئة كفة

هو صامت أبداً. لم يعد يسرع إليها يخبرها عما حصل معه من نوادر ومفارقات في يومه. لم يعد يسأل «أين أمكم يا أولاد!» ما إن تطأ قدمه عتبة الدار. لم يعد يلحظ أي تغيير تُحْدِثه على مظهرها. لم يعد يجيئها شبقاً لا ينتظر وقتاً مناسباً ولا مكاناً حميما. حتى غيرته وشكه فارقتاه. تلك الغيرة وذلك الشك المتجني المهين الذي كان يُشْعِرها بعد كل نوبة استجواب أنها امرأة مغسولة بالعار. تلك الغيرة التي حوّلتها من فرس جموح معتدة بأصلها وكبريائها إلى أرنب خائفة متوجسة دوماً من مطاردة الصيادين. تلك الغيرة الهدامة ليتها تعود فيذيب لهيبها ما بينهما من جليد.

ولمن تشكين يا أم أيمن!. فلا أخت ولا أم ولا صديقة مهما عزّت أهل لأن تظهر زلات سعيد أمامها

- أزمة وتمر... تصبري يا ثريا.

سنتان والأزمة لا تمر. تطور جديد طرأ عليها. علاقة مميزة نشأت بينهم وبين جيران جدد هما منير وزوجته ندى. كان الأول رفيقاً لسعيد على مقاعد الدراسة وفي تنظيم فتح أيام المراهقة وكانت ندى قد تتلمذت لبضع سنوات على يدي سعيد.

حرك دخولهما حياة سعيد وثريا الراكدة. فبينهما وبين سعيد ذكريات مشتركة يتبادلانها من أيام زمان. يضحكون لها حيناً ويضحكون عليها معظم الأحيان.

- أتتذكر يا أبو هيثم ذاك الشجار بيننا في ملعب الفتبول؟ كنت أنت البادئ والأسبق إلى الشكوى والتظلم. بسببك مَدّني أخي فَلَقة بعد طَعْمِتها تحت أسناني

- بالحقيقة، وبدون زعل أخي أبو أيمن!... أنت كنت مغرور وعصبي وشايف حالك باكتافك العراض

- والله يا استاذ سعيد كنت قاسياً، البنات كانت تخاف منّك (تعلق ندى)

- كُنْتُ قاسياً على المدلوعات اللي بدهم من الأستاذ الطبطبة لا التعليم. هل قسوت عليكِ يوماً يا أم هيثم؟

- للحق والدغري!... لا. أبداً. وكنا، أنا وعبير ندافع عنك عندما يبدأ الطلاب «بنتف ريشك».

- كنتِ فتاة ممصوصة الجلد، خجولة يرتجف ذقنها استعداداً لجولة بكاء كلما وجهت اليك سؤالاً. كنت أطمئنك وأشجعك. كنت تلميذة مثالية شاطرة ومهذبة

- كانت... الله يرحم أيام كانت (يعلق أبو هيثم هازئاً)

ويكمل سعيد كلامه دون أي التفاتة أو تعليق على كلام منير

- وبيني وبينك كنت أنحاز اليك وأعطيك فوق ما تستحقين من درجات.

منى خفيفة الدم، قريبة من القلب، ترفع الكلفة بينها وبين محدثها بسهولة. تتكلم عن العمل وطموحاتها ومشاريعها المستقبلية ولا تحتل شؤون الأولاد والبيت إلا هامش صغير من اهتماماتها. زوجها رجل بسيط يعمل ميكانيكياً في كراج يملكه احد اللبنانيين بدوام جزئي ويسد الفراغ الذي تتركه زوجته في شؤون الأسرة. يبدو في جلسته المنكمشة مغلوباً على أمره. فزوجته دائماً سيدة الكلام وموضع الانتباه. تتكلم عن الأعمال والمؤمرات والحزازات بين الموظفين. تفضح أسرار هذه وتثرثر بمملاءات ذاك... وإن حصل وتدخل زوجها في محاولة للجم اندفاعها لجمته بنظرة لامبالية وتابعت حديثها دون أدنى التفاتة ناحيته.

- هي امرأة عفيفة. راسي مرتاح من صوبها يقول أبو هيثم. كبر راسها لـمَّا أخذت هذه الوظيفة الكبيرة بهذه السرعة. الرجال ليسوا في حسابها ولكن هم أعينهم فارغة. هم يسيئون فهمها...

- أجل الرجال ليسوا في حسابها تتمتم أم أيمن في سرها. على الاقل ابو هيثم ليس في حسابها. وأبو هيثم يأخذ كل صلاحيات ربة البيت وبرضى تام منها. يهتم بشؤون الاولاد والبيت ومواعيد دفع الفواتير، فيما تركز هي كل اهتمامها على وظيفتها مرتاحة الضمير فدخلها يؤمن القسط الأكبر من مصاريف البيت والأبناء في عهدة أب محب طويل البال حاضر دوماً لتلبية طلباتهم.

تكن ثريا إعجاباً مكبوتاً لهذه المرأة ولو أنها في بعض الأحيان تغمز على إهمالها لأولادها. يعجبها تمردها على الدور التقليدي للزوجة والأم المضحية بطموحها في سبيل عائلتها. يزعجها فقط، هذا الاهتمام الذي يبديه سعيد تجاهها. لا يمكن أن يكون إعجاباً من النوع الذي يقوم بين رجل وامرأة تقول ثريا في سرها. هو إعجاب بشخص حقق خطوات كبيرة بمدة قصيرة. ولكن، لماذا تبرق عينيه وينطلق لسانه من عقاله كلما التقاها؟!.. لماذا لا يتذمر من زياراتهما المفاجئة كما يفعل تجاه الاخرين؟ لماذا عندما يزورانهما لا يستعجل كعادته على إنهاء الزيارة!... أمور صغيرة تعبر ذهن ثريا، قد تحدث رجفة خاطفة بين ضلوعها ولكنها قل أن تتوقف عندها. إلى أن كان ذلك الوضع الذي شاهدتهما به. هي تعرف أنه مشهد تافه لا يستحق الوقوف عنده، ولكنه ملحاح يفرض نفسه على مخيلتها ويربكها.

التقياها في السوبرماركت بالصدفة، ساروا معا بين الرفوف. توقفت ثريا تقرأ تفاصيل سلعة جديدة. اكمل سعيد ومنى طريقهما، تبعتهما بعد دقائق. كانا يقفان متواجهين قبالة عربة التسوق. هو منحنٍ فوق العربة كأنه يحتضنها. هي على الطرف المقابل تمسك بمقبضها وترخي بجسدها إلى الوراء تاركة المجال لصدرها كي يتصدر فيما التوَت رقبتها بدلال صوب الكتف الأيسر. كان في عينيها ابتسامةَ مراهقةٍ أخجلها تغزّل جريء في مفاتنها. كل ما فيه قال لثريا أنه يشتهيها. عدل حضورها من وقفتهما وساروا صامتين إلا من تعليقات مقتضبة حول هذا الصنف وذاك...

تدور في غرف البيت تكنس تطبخ ترتب الأسرة وحوار صامت يدور في رأسها.

لا يجب ان تعملي من الحبة قبة يا ثريا. سعيد رجل متزن لا تدير رأسه امرأة ولو تبذلت. هو يحبكِ ومكتفٍ بك عن كل نساء الدنيا. ماذا يعني لو تلحح الرجل قليلا!...

- أنا متأكدة ان الأمر لم يكن أكثر من مجاملة عابرة. قد يكون اشتهاها. قد يكون في حلم يقظة داعبها، عراها، دخلها. اما خارج الخيال فلا... وألف لا. ولكن أليست خيانة الفكر خيانة كاملة!...

- مَن يدور في رأسها طيف رجل خائنة وزانية كان دائماً يقول. هي كمن تذهب عملياً مع آخر إلى الفراش.

نظريته هذه واستجواباته لها بعد كل لقاء لهما مع جنس الذكور، جعلها تتقوقع. تحسب الف حساب لأي كلمة تلقيها امام زميل او جار. جعلها ترى نفسها فريسة وكل رجل صياد متربص. ها هو الثوب يلبسها الان لم يعد بامكانها خلعه حتى ولو خلعه هو.

- لماذا لا تفاتحينه بالأمر؟ لماذا لا تقولي له ان تصرفاته إزاء منى تؤلمها

- لا. لا. سيصول ويجول وينسب إليّ خساسة التفكير. سيقول أنني بلا مخ. فالمرأة زوجة صديقه.

كتمت شكوكها واستغربت كيف انه لم يلحظ ما طرأ عليها من تغيير: شرود وسهاد ونبـرة صوت مكانيكية لا حماس فيها ولا انفعال... إلى أن كانت تلك الليلة المشؤومة.

كانوا مجتمعين على عشاء غير مرتب في حديقة دارهما. على طاولة زينها شرشف زهري بنقوش ربيعية وبين خضرة ربيعية شاعرية صفّت ثريا أنواعاً وأنواعاً من المقبلات. تكلم منير عن هذا الصنف وذاك وتعجب كيف أنها ما زالت تجهد نفسها في هذه البلاد بصنع كل هذه الأنواع المعقدة من الفطائر والمعجنات والمخللات وأقراص الكبة.

- والله أنت محظوظ أخي ابو أيمن

كانت الخمرة قد دارت بالرؤوس فقال سعيد ممازحا

- تبادل اخي أبو هيثم؟

-اقفل فمك!!... قالت ثريا منفعلة. أنا لست موضوع مبادلة.

أدهشت ردة فعل ثريا الحضور وانتهت السهرة بعبارات مجاملة ميكانيكية باردة لتبدأ في حياة ثريا سهرات قلقة غرقت فيها بصمت مريض

- هكذا إذن يا سعيد!... تريد ان تداكشني بأخرى! وبمن!.. بـمنى!

- كم كنت غبية وساذجة يا ثريا!.. (قالت في سرها). ركبك الغرور. ظننْتِ أنك اكتفاءه الدائم، فقط، لأنه هو اكتفاؤك الأول والأخير. لم يدر في خلدك أنه رجل وككل رجل يشتهي تفاحة غيره. لم يدر في خلدك أنه رجل وككل الرجال يمر بأزمة منتصف العمر. لم يدر في خلدك أنه حينما يدعي أنه نصير المرأة إنما ليلفت انتباههن. وعندما يبدي شهامة تجاه رندة وجميلة ونبيهة إنما ليكسبهن معجبات. وأن كل شكوكه وسوء ظنه بالرجال تجاهك هي من باب «الهر المخرب الذي يخاف من طقة المزلاج».

سنتان مرت على تلك الحادثة خبت صداقتنا لمنير وزوجته إلا ان وساوسي لم تخبُ. سعيد لا يزال على مسافة مني. أيكون ملني؟ أيكون كرهني؟ ايعقل انني أمسيت حملا زائداً في غربته؟... أعيش أزمة يعلم الله أين ستؤدي بي. بدأت أحس بعدميتي. مجرد جثة زائدة في هذه الحياة...

يسأل الأطفال لماذا يموت الناس وتسأل الطفولة فيّ لماذا يعيشون. لو أنني مؤمنة لاقتنعت بالعيش حسب إرادته تعالى الذي سيعوضني عن كل ما أقاسيه في هذه الحياة. أما وفيما انا فيه، فلماذا اعيش؟!.. إذا كنت أسأل لماذا اعيش فهذا معناه انني اختار الموت. ولكن هل الموت اختيار؟!. لا. الموت هو نهاية مطاف وصراع. هو مكافأة الطبيعة العادل لابنائها الذين لعبوا دورهم كما رسمته هي لهم. أنهاء الحياة بعملية قسرية هو اقتناص لحق لا حق لنا فيه.

هل أنا أنانية؟ هل إني أدور في محور ذاتي كما يقول المتفذلكون؟!...

أحسني أموت نتفة نتفة. حواسي تزداد تبلداً يوماً بعد يوم. لا أفرح لتفتح وردة في الحديقة ولا أتحسس لمسة الحرير على خدي الأسيل. لماذا أقف عند كلمة عابرة القتها طفلة غريرة جزافاً كل هذا الوقوف؟!.. لماذا أرى في معابثة عابرة تحصل كل يوم بين كل الرجال والنساء أمراً يزعزع أعمدة حبي وبيتي وقيمتي الإنسانية. لماذا أعمل من الحبة قبة؟!.. لماذا أحيك من مكالمة هاتفية عادية قصة خيانة تترصدني؟ أليس من الغرور الأعمى أن أعتبر نفسي فوق مستوى العقوق والخيانات؟ أأكون جبانة وتافهة وغبية لتزعزعني وكسة تحصل لمعظم الزيجات؟..

لأكن أقل قيمة مما كنت عليه. لأكن أقل نفعاً مما تعودت ان أكون. لأكن عديمة النفع بالمطلق. ألا يكفيني رصيدي من السنين السابقة؟ أما تربعت لسنوات على عرش الأم المثالية والحبيبة المشتهاة والزوجة ورفيقة الدرب التي يُتكأ عليها في الملمات؟. ألا يكفيني ذلك الرصيد الذي تركته في قلوب تلامذتي وجيراني وأصدقائي زاداً لهذه الأيام العجاف؟!..

لقد تعودت على مدى عمري ان أكون صاحبة اليد العليا. البنت الكبرى التي تسهم بالجزء الكبير من نفقات البيت. الزوجة التي تحمل اكثر من بطيخة بيد واحدة. الأم التي لا تعرف لنفسها مطلباً ولا راحة إلا بعد سداد كل الطلبات. الصديقة الصدوقة والجارة المستجارة التي ما خيبت رجاء صديقة أو جارة.

ما بالي أحس بلاجدوى حياتي... إنه الغرور الأعمى. لو لم أكن مغرورة، لقبلت بانقلاب الأدوار. لاعترفت انني بحاجة لصديقة اشكو لها همي. لابن اقول له انني بحاجة الى رد دينه. لزوج أضعف أمامه وأساوره بغيرتي وشكوي. ولكنني لا أستطيع ذلك، فأنا تاجرة، أقايض عطاء بمديح. لن يمدحني أحد لو كنت ضعيفة ومحتاجة ولا شيء عندي لأعطيه.

النحلة أكرم مني. إنها تعطي عسلها دون أن تنتظر الشكر. الشجرة خير مني إنها تطرح ثمرها ولا تبالي بما يلحق بها من إهمال بعد جفاف أغصانها. حتى هذه الدجاجة التي ترعى صيصانها قبالتي ولا تطلب منهم أي شكر او مقابل، هي أيضاً أفضل مني.

انا لا أحب احداً بالمجان... أنا أحب لأُمدَح، وأخدم لأُمْدَح وأتنازل لأُمْدَح. أنا تاجرة رخيصة وها هي تجارتي ترد اليّ. الطبيعة تأخذ حقها مني، يجب أن أدفع للطبيعة دينها عذاباً وحيرة وغربة. كذب من قال أن لا ثواب ولا عقاب في هذه الحياة. الطبيعة تثيب وتعاقب بشروطها ولأن خطيئتي عظيمة فإن عقابي سيكون على قدر فداحتها. هذه هي جهنم. أعيشها منذ سنتين، أدفع ثمن كبريائي الزائف. هذه هي النار التي تكلم عنها الرسل والانبياء. أعيشها... أحس لسعها لحظة لحظة. سأظل في جحيمي هذا لن تنقذني منه مهدئات ولا جلسات طب نفسي... لن ينقذني إلا متى تعلمت أن أعيش الحياة مثل النحلة والشجرة والدجاجة. وحتى أصل الى مبتغاي ليس أمامي إلا الاستسلام لحكم الطبيعة العادل. لن ألجأ الى الحبوب المهدئة ولا الى الانعزال واليأس ولا الى التظلم والتباكي. سألجأ الى الانتظار انتظار أن أشفى من خطيئتي المميتة التي عشت على وهم أنها فضيلة.

ثالثاً: ... قصيـرة جداً

إغواء

مريمتي المجدلية التي تجيد مراوغة الحياة، زارها الملاك جبريل مرّة.

قهقهت هازئة:

- بضاعتك لا تغريني!.. تعال إلى تفاحي.

فاحمرّ خجلاً.

لتفاحها ألق لا مثيل له في تفاح الجنة

- تفاحي عمره قصير. أهجره بعد أن ينقضي موسمه وأعلن التوبة. ألعب معه لعبة الحياة

- تعال إلى تفاحي، فأسكب فوق قدميك العطور العربية. عطوري مسكها غير سرمدي. تذوب بعد أن ينقضي أريجها

خفض بصره فيما راح يتلوى أريج عطرها في شرايينه. يحيا ويموت. ينبعث ويتلاشى. يختلف كثيراً عن عطر الجنة.

- تعال الى مخملي (قالت). مخملي يختلف ارتعاشه بين لمسة وأخرى.

صحا خياله النائم منذ آلاف القرون. أربكه ما صار من ارتعاش في أماكن ما من جسده.

- إخلع جسدك الاثيري المضيء منذ ملايين السنين. عتمة جسدي ستفتح نوافذ لا تفتح في النور

أغمض عينيه كأنما ليستجيب لندائها. جاءه صوت أثيري:

- إحذر حواء يا آدم

كاد يتجاهل النداء فتبعه آخر:

- لا تكن إبليساً آخر

لملم ذراته وطار ليحط في غرفة أختها مريم الناصرية

سدني 2006

حلم

كلمسة شفاء بعد عاصفة آلام مبرّحة مسّنــي حبه. لقي الباب مواربا ً فتسلل دافئاً كشمس خريفية. استفاقت محتجة زاعقة وطاويط ذاكرتي. ظل على هدوئه ما أرجفه زعيق. كعذراء ما عبث في حلمها الذهبــي فارس مخاتل، استسلمت لدفئه. على مهل بعثر ما رتبته جدتي ومن قبلها جدتها ومن بعدهما أمي ومعلمي وكتاب صلاتي. على مهلٍ أمسك بتلافيف روحي وقادني من عتمة آلاف السنين. رويدا رويداً دون أن يصعقني بضوئه الباهر أخرجني من سجني إلى الحرية.

جأرت فرامل سيارة مهتاجة تحت النافذة. سلبت لمسة شفائي وأعادتني الى عتمتي راضية مرضية

سدني 2006

إدمان

قال: مثل الإدمان أنت لي. فاتسعت حدقتا عينيها وسألته:

- كيف يكون الادمان؟

وكان كلما قال أكثر كلما زاد جهلها.

منذ يومها وهي تحدق مشدوهة بنجوم السماء وتتساءل كيف يكون الإدمان!..

ذات سحر، غمزتها نجمة ورحلت عند الفجر.

صارت كل ليلة تنتظر غمزة نجمتها.

ولكنها لا تزال تسأل كيف يكون الإدمان.

سدني 2006

ذئب وفراشة

- ذات غسق نادتها النداهة. منتشية بالنداء، تقمصت فراشة. طارت مزهوة باتجاه الصوت. صُمَّت أذناها عن عويل ذئب تسلل إلى مكامن شهوتها، امتص رحيقها ورحل مزهواً بفتح عاصمة الأمويين

سدني 2006

مصيدة

مددت يدي الى تلافيف الذاكرة. طالعتني حية رقطاء تنتصب في وسط العتمة.

جبنت... تراجعت... وصرت أعيش في حاضر تعس لا ذكرى جميله تزيح عنه بعض كربته.

سدني 2006

التباس

قالوا لها، في مجتمعك الجديد هذا، «كل عنزة معلقة بكرعوبها». لا أحد يتطلع إلى ما تلبسين او تفعلين ومع من تتكلمين. لا أحد يترصّدك. أنت حرة من كلام الناس وفضولهم.

صدقتهم. طردت الرقيب القابع في ثناياها وصارت تتصرف بما يشاء لها هواها.

تمايلت بغنج على شرفة منزلها، ومررت أصابعها بين خصلات شعرها منتشية بعبق الحبق والغاردينيا المنبعث من تحت الشرفة، لاحظت رجلاً على الشرفة المقابلة يبتسم لها فبادلته الابتسام.

في المساء دُقّ جرس بابـها. كان يحمل زجاجة نبيذ. شيء ما فيه أو من بقايا شرقيتها أيقظ توجسها. حاولت أن تمنعه من الدخول. وضع رجله بين الباب والعتبة وعطّل محاولتها. في انعطافة الباب الموارب مزق قميصها. استغاثت فما أثارت استغاثتها أيّ حرّ أو حرّة. كان ما كان ولم يكن الباب إلا مواربا

سدني 2006

حلمت بوصال رؤوف

هذه الليلة زارتني وصال رؤوف. هل تعرفها/ تعرفينها؟! هي عشيقة وليد مسعود الفلسطيني الذي اختفى على الحدود الأردنية العراقية على يدي جبر ابراهيم جبرا عام 1978. نظرت إلي باحتقار واشمئزاز. لم تقل شيئاً ولكني علمت أنها غاضبة لأنني في مقالتي الأخيرة جعلتها عاهرة

جلست كاشفة عن فخذين عاجيين. عبّت نفساً من سيجارة طويلة الساق ونفثته فملأ سماء الغرفة المقفلة الستائر دخان لولبي كثيف. ترددت طويلاً قبل ان أكسر الصمت الثقيل

- عفوك سيدتي الجميلة أنا لم أقصد الإساءة

لم تلتفت نحوي وظل رأسها عالياً وعيناها تزوغان في سقف الغرفة.

- س! س! سيدتي!.. نحن في عام 2010 وليس في عام 1978.. الدخان ممنوع في غرف النوم. أرجوك!..

ظلت على وجومها

- س! س! سيدتي!.... كنت بغدادية تعشق فلسطينياً يعشقك ويعشق العروبة فيك. وأنا لا أستطيع إلا ان أشتمك وأتبرأ منك وإلا هدر دمي.

كان رماد سيكارتها يطول ويطول فلا هو يسقط ولا هي تنفضه.

- س! س! سيدتي!.. نحن في عام 2007 ولسنا في عام 1978. أبو مصعب الزرقاوي سيقطع رأسي لو قلت غير الذي قلته فيك...

عدّلت من جلستها فاشتد ثوبها الزهري اكثر صوب الأعلى، والله لو أن مترهباً عنيداً رآها، لخلع ثوب تعبّده وأنكر سيده ثلاثاً قبل صياح الديك.

- س! س! سيدتي!.. نحن في عام 2003، فكيف تسللت أنت بين الأزقة المملوءة بالمارينز والسستاني وأبو مصعب الزرقاوي وعبد الحكيم الصدر والبارازاني والطالباني والجوعاني واللصوص وسارقو الاثار. كيف إنهم لم يسرقوك؟ كيف إنهم لم يرموا بك خارج بغداد وفي رحمك مَنْــي فلسطينــي؟

تغيرت ملامحها. سمعتها تتمتم

رحت أخمن بما يمكن أن تكون قد قالته

استفقْتُ مذعورة... كانت يدي اليمنى محروقة «بزرزور» سيكارة...

سدني 2011

حلمت بغسان كنفاني

ذات ليلة زارني غسان كنفاني. عفواً!.. زارتني رجله المقطوعة التي رأتها زوجته آني في زاوية من حديقة منزلهما في الحازمية في الثامن من تموز عام 1972.

كانت الرجل تتقافز بعصبية غريبة وكأن الروح قد دبّت فيها. ارتجفْتُ....

- ماذا تريد منّــي يا أبا فايز؟!

انتصبت الرجل على رؤوس أصابعها وصار لها في أعلى الفخذ فم بشاربين عريضين وعينين غاضبتين

- اقفلي فمك واخرسي... مَن خوَّلك ان تنطقي باسمي وتقولي إني أُحرِّض وأثوِّر وأرمي بالهاربين إلى مكب زبالة؟!.

- ... و

- دعي كتاباتي ترقد هانئة في مهجعها ولا تتطاولي عليها

- و و...

- مجرد ذكرك لها إهانة لي ولها.

- ولكن...

- لا لكن ولا لكنّ... هذا زمن لا تلقى به الدرر أمام الخنازير

سدني 2011

في الرابع من حزيران

وفيه مهدّوا لاجتاح بيروت بقصف مدينتها الرياضية.

* * *

كانت في الثانية من عمرها. نهروها. قالوا لها إطلعي برّا.

خرجت إلى الشرفة تشكو لملاقط الغسيل ظلمهم. هي ملاقط ملونة أحمر أصفر أزرق أخضر.

صنعت منهم صبياناً وبنات وراحت تحادثهم وتحبهم ونسيت تظلّمها.

فجأة دوى صوت راعب ارتجف له قلبها وملأ غبار حارق عينيها...

زعقت مرتعبة، وصارت دقات قلبها تسمع عن بعد.

ركضت إليه واختبأت بحضنه.

هدهدها... اطمأنت وسكن ارتجافها.

ظلت عشرين عاماً تهرع إلى حضنه كلما داهمها صوت راعب، وظل في كل مرة يهدئ ارتجاف قلبها وقلق عينيها.

ابتأس يوم كفت عن عادتها الجميلة تلك وتساءل!.

- ترى هل صار لها حضن أدفأ!.. أم أن حنو حضنه زاد عن حده وأمسى قيداً!؟..

سدني 2006

خيش وحرير

داهمتني هذه الصورة فيما أنا أهدهد حفيدي لينام.

غريب أمر هذه الذاكرة كيف تلملم بضاعتها من بلاد الواق الواق دونما حساب لمنطق أو ترتيب فتعطف الحرير على الخيش والفحش على القداسة!.

كيف وأنا أغني للحمام مرت صورة محمد الدرة

سدني 2006

نفسي حزينة حتى الموت

في الخامس عشر من كل أيار، كانت تسند خدها بكفها وتسهم بعيداً صوب الجنوب وتقول: «نفسي حزينة حتى القيامة...» في السنوات العشر الاخيرة صارت تقعد محنية الظهر تغرق وجهها بأصابع كفيها حتى الوجع وتقول: «نفسي حزينة حتى الموت».

سدني 2011

سعيد أبي النحس المتشائل

تعرّفْتُ عليه فوق إحدى مسارح سدني. قلت فيما نحن خارجين من المسرح: حرام سعيد. صاح بي صيحة لفتت سمع جموع الخارجين من المسرح.

- سكِّر بوزك!.... العميل ما بيقولوا عنو حرام.

سكّرِت بوزي. لا احتراماً ولا اقتناعاً بل تفادياً لغضبة هوجاء قد تؤدي إلى طردي طرد الفريسيين من الهيكل.

عندها فقط تمنيت لو أنني أجيد العربية لأرى أين وقع الالتباس في تصنيف سعيد أبي النحس المتشائل!.. بعقلي! بعقل والدي!.. ام بعقل من فرنجه وأنطقه بالانكليزية؟

سدني 2006

هكذا تبدأ الامور

عندما كان صغيراً كان يتألم لأن أمه تحب أخاه أكثر منه. مالاءها كي تحبه أكثر.

في المدرسة قرّبته المعلمة وطلبت منه أن يقول لها ما يدور من كلام بين رفاقه الصغار في ساحة المدرسة.

لم يقل له أحد ان هذا خطأ وظل يمارسه فقط لممالاءة المعلمة والتقرب منها.

عندما كبر صار اسمه «سعيد ابي النحس المتشائل»

سدني 2006

حبٌّ وسياسة

هو يحب أنور السادات وهي تحب جمال عبد الناصر. نسمعهما يتصايحان بعد نشرة الأخبار المسائية. هو يتهمها بالسذاجة والمراهقة السياسية. هي تتهمه بالانحراف والتخلي عن مبادئه

- ليس هذا هو الشخص الذي أحببت وقاتلت الدنيا لأتزوجه (نسمعها تقول).

-لسْتِ إلا تافهة عنيدة متشبثة برأيك الأعوج (نسمعه يقول)

نسمع أصوات تحطم زجاج. تشرق على وجهي ابتسامة متشفية وأقوم لأقلب «السرماية»[19]

- سوف يطلقها!... ألوي شفتي السفلى شامتة

يعم الشقة هدوء... ثم لا تلبث ان تنبعث أنغام موسيقية حالمة، ورائحة شموع عطرية. لا أجروء على الاصغاء جيدا... لو فعلت، لسمعت قهقات خافتة وربما ماجنة من ذلك النوع الذي لا يحدث إلا في غرفة حمراء مغلقة.

سدني 2006

أبلغتني عزة

- ابلغتني عزة، وهي صاحبة قولي الجميل، أن قارضاً بجبة وعمامة يتسلل إلى «حاكورتنا» عند الغسق، يقضم جذور زيتوننا وسنديانننا وأرزنا وبرتقالنا. عند الضحى، يبشر برمي أعدائنا في البحر.

سدني 2013

بشارة

بشّرتني عزة وهي صاحبة قولي الجميل، ان الثور الأبيض والثور الأسود على حدود حاكورتنا لم يفرّط أحدهما بالآخر. وقفا معاً بوجه الدب الأبيض الزاحف من الشمال وتربصا معاً النسر الجارح المحلِّق على بساط ريح.

استفقت طروبة، أوزع البِشر بألوان قوس قزح.

سدني 2013

بدأت أضيق بعزة

سمعتني عزة أغني لحفيدتي:

- يلّا تنام ريما... يلّا تحب النوم... يلّا تجيها العوافي... كل يوم بيوم.

عندما وصلت إلى:

- يللّا تنام يلّلا تنام، «لَ ادبحلا طير الحمام، اطلقت رعدة مدوية اخترقت أذن من به صممُ.

تجاهلت اعتراضها واكملت:

- رُحْ يا حمام لا تصدق بِضحك عا ريما لتنام.

قبضت على حنجرتي وقالت متشنجة:

- أمة منافقين!.. فأصابني ما أصاب زكريا «عليه السلام».

سدني 2013

سأطلّق عزة

سأطلق عزة صاحبة قولي الجميل. أمست وقحة طويلة اللسان. تتهمني بالسذاحة، بالهبل، بالغباء.

الليلة الماضية وفيما أنا أدبِّج مقالتي الأسبوعية مبشرة على طريقة خليل حاوي بشرق مشرق جديد، شَلّتْ عضلة لساني، كَسرت ريشة قلمي، هددتني بمصير كمصير حاوي إن أنا عدت مرة ثانية إلى هذه التخريفة.

سدني 2013

غرور

لوت السنبلة الملأى رأسها وقالت: من أنا حتى أعظ وأحاكِم وأُقرر!...

قالت السنبلة الفارغة متباهية: أنا الشامخة رأساً! الأرشق قداً! الأرجح عقلاً

أنا أعظ

انا أحاكم

انا أقرر

أنا سلطانة حانيات الرأس لصيقات التراب

جاء الحصاد، سحق كلتيهما بأقدام نورجه الحديدية

تطايرت السنبلة الفارغة هباء في الهواء

قبعت الملأى تنتظر يداً حانية تصنع منها زاداً خيراً وحياة

سدني 2013

خباثة

قريبتي القادمة من لبنان شدها الفضول لحضور صفي لتعليم اللغة العربية في جامعة سدني

عند انتهاء الدرس فاجأتني بسؤالها

- لماذا عندما يلفظ الأجانب الضاد دالاً نضحك لهم، وعندما يلفظ أحدنا أل B P نضحك عليه؟

سدني 2013

ورطة طالب دكتوراه

- أين صرتَ في بحثكَ العتيد؟

أتجاهل سؤالها وأغيّر الموضوع. تصر عليه وبشيء من الاستهزاء في صوتها:

- ...

هذا المساء وجدت الجواب لسؤالها.

كانت الشيف «منال العالم» تقدم وصفتها الشهية لصنع الكنافة النابلسية بكل لباقة وثقة واتقان.

قلت: ماذا لو تدخلت كِنَّة منال لتصحح وصفتها؟

سدني 2010

قفص وفراشة

في المنسى عز عليها عقوقهم.

هاجت أمواج غضبها

ثارت أرغت أزبدت!...

تلاشت متعبة على صخور الواقع.

في المنسى ضاقت بقضبان القفص.

جُنَّت أجنحة تمردها.

حامت طارت صرخت.

أرهقها اللطم على القضبان.

في المنسى، تسللت فراشة زاهية الألوان إلى تلافيف دماغها

صار مَنْ حولها بنت، ابن، حفيدة وحفيد.

آب 2017

رابعاً: وجدانيات

سكعِ القلب ولم يهوِ

حبيب العمر

فرح صباي وأحلامي

رفيق الدرب الصعبة

وطني في غربتي

عكازتي في ضعفي

أبو سامر

صاحب القلب الكبير

الوفي لمسؤولياته حد سحق الذات

النزيه الصادق الجريء كحد السيف

الأصيل الثابت على مبادئه ومواقفه

المترفع عن كل زيف ومماألأة

اثقلت قلبه المسؤوليات

هيّجت دمه هموم الوطن

سكع القلب ولم يهوِ

أبو سامر الحمد لله على السلامة

أيلول 2016

ميرا الأميرة

كان لمجيئها ألق المرة الأولى

هي حفيدتي الأولى. ليست أول أحفادي

جاءت في الثالث والعشرين من يوليو

اصبحت بهجتي في هذا اليوم بهجتين

منذ أن وقعت عيني عليها وهي بعد ملطخة بوخم الرحم

شعرت بسعادة علوية ضاهت سعادتي بمجيئ من نصّبتني أماً.

وتكبر ميرا ليكبر معها كل جميل ورثته عن أمها

جميلة. ودودة. ذكية. مملوءة حناناً

ميرا تزداد ألقاً من سنة إلى أخرى

تفاجئني بجديد مدهش كل مرة أراها

ليت شعري أي مفاجأة رائعة تخبئ ميرا لعامها الثامن عشر

ترى!... هل ستسعفني اللغة لأقول ما يجب في تلك الصبية الواعدة!..

أعلم علم اليقين، أن ميرا عندها، ستسكرني فخراً وحبوراً

ولو أني تحت التراب.

2016 /23/7

قرة العين

محارة وليده

مهملة بين الطحالب والصخور

وشوشتها الأمواج بأسرار القرون

عانقتها الشمس ناراً ولهيب...

غمرتها النجوم دفئا وحنان..

محارة وليده

خرمشتها هبوب الحرب

وهي بعد قميطه...

أنضجتها قبل الأوان...

محارة دارجه

مشرّعة للريح... للإعصار.

حملها جنون العاصفة

إلى شواطئ بعيده

محارة عنيده

تطاولت... تخطت

مزقت كل الأشرعه

محارة واعده

عانقت... سحقت... تعالت

تفتحت لؤلؤاً... حباً... وعطاء

على شواطئ جديدة.

20/08/1998

عصفور جنتي

عصفور جنتـي

تعلَّم لغة التحليق

نفض قشوره متمرداً

سطرت أجنحته فضاءات جديدة

عصفور جنتـي

أغرته نداءات أُخَر

صهلت خيول في دمه

أقلع خلف طواويس بعيدة

أمعن البعد عن المضارب

غداً يعي

كل لحبل سرته

ابداً مشدودا

عصفور جنتـي

حطم طوطم القبيلة

استهوته طواطم أخر

غداً يعي

كل الطواطم حبوس

في القبيلة مراجل تغلي

قرقرة صخر كلسي

غاضب الزبد

يتخطاه عصفور جنتي

بلثغة هادئة علوية

عصفور جنتي

خطواته ربيعية

حبلى باحلام النسور

متعثرة...

تصطنع الوثوق

تهزأ من خريفي

غداً يعي

ما الخريف إلا ندى ليلي

لحمأة شمس لاهبة

ويبقى عصفور جنتي

اكتفائي عند انسلاب الأماني

شعاع دفء في ثلج الكهولة

وطني في لظى الاغتراب

19/11/1995

عصفورتي المغردة

وتكُّر السنون....

وتظلين عصفورتي المغردة

الثائرة المعربدة

الحائرة المقيدة

وتكُّر السنون....

تبتعدين عن حضني أكثر

وتقتربين من عقلي أكثر

وتكُّر السنون....

وتكبر فيكِ آمالي

وتزهر فيك أحلامي

يا وطني في غربتي

يا اكتفائي في عزلتي

يا شبابي في كهولتي

تغريني أنانية الأمومة أن ابقيك طفلة

أهدهد سريرك

اخاف على غذائك

أجزع لوعكة تلم بك

وتردّني نظرتك الواعية إلى حقيقتي

فأصحو من أنانيتي

وأعترف أنك قد كبرتِ

صرتِ أكبر، صرت أجمل، صرتِ أصلب ألف مرة

ولكنني لا زلت أعيش قلقي عليكِ

وأعد خطواتك.... خائفة عليك من الزلق

فاعذري قلقي وخوفي

تحملي ثرثرتي وعظاتي

ما همني لو منها نفرت

مفتونة انا بك

أحب كل ما فيك

ثورتك. غضبك. قلقك... وحتى قلة أدبك

ستظلين في عينيَّ (ميما) مهما كبرتِ

فلا يغرنك انك ثمانٍ وعشرة قد بلغْتِ

12/09/1994

في المنسى

يمر هذا الشتاء

لا كانون لا قانون لا رماد

في المنسى

أشباح تمر كالسراب

لا حزنها يعنيكِ، ولا ألمها، ولا طيب الرضاب.

لا عضلة قلب ترتجف

لا نبض ذاكرة يُسمَع له رنين.

في المنسى

يتلاشى الحب الكره الحقد...

فما من ذاهب الى إياب

فقط بعض ومضات مُجرِّحة تنوس بعتاب

يمر هذا الشتاء وقد خلا المراح من الخراف والعجول.

هرولوا فرادى...

خطفهم بريق نجمات تلمع في الأفق البعيد.

كم أقلقكِ تيههم!...

كم تخوفت عليهم من غراب ناعب وشراك ذئب منصوب في الطريق.

كم أسهدك قلق، كم دققت صدراً

كم تضرعت ونذرت بخوراً ليَـؤبوا سالمين!..

جاء شتاؤك فخففي الوطء على هذا الخافق الوجيب

مَرِّنـي القلب على عض الوجع

مرِّنـي العين على التخلي

مرِّنـي السمع على صد الصراخ والأنين.

جاء شتاؤك فتدثري بصقيعه فليس بعده من ربيع.

إحملي اعوامكِ التسعين وما نسجته من حب وعشق وود وعطاء جميل

إلى كهف الصقيع

دَثِّري بها جسداً وَهَنَ وذهناً تراخى وغصة خفتت

واستريحي من كل عبءِ حبٍ، توقٍ، لهفةٍ، قلقٍ، حزنٍ، خيبةٍ في قطيع تخلى

مرِّنـي النفس على صبر الانتظار

حَصِّنـي النفس من وباء المقابل

أمسكي اليد عن مقاضاة البديل.

صلي، إن كان في الصلاة عزاء، كي يكون فصل شتاؤك

أقل صقيعاً، أقل حسرة على غبن السنين

وأرحم وخزاً في الضمير

أنتِ لسْتِ وحدك في كهف المنسى المعتم العقيم

كانوا قبلك وسيكونون بعدك

أنتِ مثلهم لهثْتِ خلف لامع

جَنَيْتِ عسل نحل ولسع دبابير

وسهَوْتِ عمن سبقوك إلى فصل الصقيع

آب 2010

فعل اعترافٍ وندم

كتبت انجيل عقوقي وكسرت المحابر

طلقت قبلتي

قطعت حبل سرتي

صار لي قبلة جديدة

درت حول حجرها حتى أعياني الدوران

ما شع فيّ ذبالة إيمان

بارد بارد حجرها حتى اعماق النكران

عبرت الضفة الأخرى

لا قهوة سوداء في دمي

لا نخيل، لا خيول مطهمات

صار لي سماءات... ولاءات جديدة

صار لي ذات محتقنة بالغضب

لا تتقن إلا الشتائم والجحود

هذي بلاد امحلت

بطنها لا تلد إلا صبارا وحنظل

هذي بلاد كل نواطيرها امست ثعالب

كبرياء الصمت في صحرائها

امسى هذيانا متواطئ

وخليجها نضب فيه المحار

للردى امسى قرار

هذي بلاد أدمنت الحزن المسالم

تتغنى ذل الصبر تدعوه مكارم

عاقرت الحزن وليفا

بذرت في كل رحم كربلاء

فوق رحى الطاحون... في خوابي الزيت

في جذور القمح... في أثداء المراضع

كربلاء... كربلاء

«المومس العمياء» في كل زقاق

فلا «تحوّلات صقر» في فضاءاته

ولا بيض نسور في شعابات الجبال

«مأساة حلاجه» تفقس في كل دار

رباه!!... ما هذي الرعود العقم في بحر الجزائر؟

رباه!!... كيف نحرت فعل إيماننا الجزائر؟

رباه!!... كيف أفرخ بيض نسورها هذي الأفاعي؟

رباه! أما من خضر يقتل التنين المكابر؟!...

وتعلمت في يتمي

أن أُنكِر...

ونسلته من بين الخلايا والعروق

أواه ما أعمق هذي القروح

لا اليتم يشفيها ولا ذلّ الهروب

ورأيته يولد فيّ

في كل يوم، في كل ساعة، في كل دقيقة

في كل شهقة حياة

تحت الجلد بين اللحم والعظم

في النسغ في الخلية يتفتق

حلو جميلاً كالوفاء

وفي عمق عقوقي

كان قريباً مني كسجني

كان حميماً كانفاس الرجاء

من مجموعة، ربيع لم يزهر

مفارقان

في دمي رجس من أعمال الآلهة

متجذر... دهريّ... سحيق.

في دمي قمقم سليمان

يحميني من وهج الضوء

يبقيني في حظيرة الغلمان

في دمي جيف الآف السنين

بقايا تيمورلنك...

ذل سياط ابن يوسف

في نبض اجنتي سفاح عنيد

ينتشي سكران من خمرة

شهريار... وهارون الرشيد

في نسغ اشجاري فحيح أبدي

يتلوى أبداً ظمان...

للعتمة لقضبان السجان.

في عمق جذوري رفض عنيد

«نار تحرق... تغرق... وتبيد»

كل خلق... كل إبداع... كل وليد

في دمي أسوار ذل تحميني

تبقيني في صومعة العبيد

أرتل... أسبح... أستغفر

أدق أوتادا ...

ابني تكايا ملىء بالمرايا

أنتظر!...

جنات تجري من تحتها الانهار

من ذا يحررني من دمي هذا!..

من ذا يرفدني بدم جديد!..

في دمي وهج حضاري تليد...

زادي لهذي السنين العجاف...

في نسغ اشجاري إرث عطاء...

في جفاف تصحري... ينبعث اخضرار...

في نبض جذوري

كبرياء بلقيس...

عنفوان الزباء...

في خفق رئتـيّ

وفاء عشتار...

طموح أليسار...

في بريق عينـيّ

شجاعة خالدية...

عزّة أندلسية...

في نبض اجنتـي رفض مجيد

لكل استلاب... لكل احتواء

لكل انفصام...

بوركت عطاءاتك يا دمي

بورك إرثك يا جذوري!..

سدني 1994

إنَّهُم بيروت وملحها
وخبزها وعملتها الصعبة

أن تذهب إلى بيروت

تعيش عبء أهلها اليومي

تتنقل بين أحيائها بالسرفيس والباص

تؤسيك تعليقات سائقيها الساخرة المريرة

تلتقط هموم ناسها من أفواه الباعة المتجولين

أن تزور جامعتها الوطنية

فيملأوك ألم لما لحقها من إهمال

أن تلتقي رفاق الأمس

فتقرأ في الوجوه قلق وخوف من كهولة مجهولة المصير

عندها!.. لن يكون ذهابك إلا رحلة ألم لتخلٍ وهروب ولسان حال يقول

ما أعقني وما أوفاهم!

أن تذهب إلى بيروت وفي إمرتك سيارة فارهة تنقلك بسلاسة عبر شبكة طرقات لا أرقى ولا أحدث!.

أن تزور مطاعمها ومقاهيها فإذ هي واحات ما مستها فاقة ولا اعتراها نكوص

أن تزور رفقة الأمس، فترى البذخ والتمظهر باليسر على حالهما لم تلطفه المعاناة،

عندها، ستحمد ربّك على هذه الهجرة التي جنّبتك عيش التكاذب هذا

أن تذهب إلى بيروت

إلى حفل لمرسيل خليفة

فترى القاعة فاضت بروّادها

والتحم ناسها في حالة شجن تلقائي جميل

عندها يكون ذهابك غسلاً لما عبأه المنفى فيك من برودة وبلادة حس وقطع لصلات الرحم.

على مدى ثلاثين يوماً

ارتشفت بيروت وجوارها قطرة قطرة

ارتعشت لهندسة عمرانها وانتظام كورنيشها وزينة أعيادها.

دغدغت شفتي ابتسامات ساخرة لعبثية سائقيها وفوضى شوارعها

حججت إلى حيث كان مقهى الومبي

تنشقت عبق كبرياء خالد علوان

خشعت رهبة أمام زنزانات سجن الخيام

تلمسّت بقدسية حجارة قلعة شقيف

وانتشيت برحيق بطولة محرريها

مضت الأيام الثلاثون وأجمل ما بقي منها

صورة البيروتي الصابر الشاطر الذي لا تغلبه حاجة

للسائق الصامد وراء مقوده على ضآلة مورده

للتاجر الصابر على ركود سوقه

للمهندس والطبيب والبروفسور النزيه الشريف الصامد على مبادئه

لهؤلاء أنحني وأُجلّ

إنّهم بيروت وملحها وخبزها وعملتها الصعبة

سدني 1992

Notes

[1←]

تنويه: إن لفظة أبو ككنية، ستكتب دائماً بالواو (هنا، وفي أي موقع آخر من الكتاب)، بغض النظرعن موقعها من الإعراب

[2←]

رميش: قرية حدودية لبنانية كانت تشكو شح المياه وانعدام الموارد الطبيعية ومن ثم الفقر

[3←]

يارون: قرية حدودية لبنانية كان لها حصة كبيرة في عدد الضحايا والتدمير في حرب تموز 2006

[4←]

الجزينيّة: نسبة الى بلدة جزين

[5←]

البلاد: فلسطين التاريخية

[6←]

تامبا Tampa سفينة نروجية استجابت لنداء قارب صيد اندونيسي على وشك الغرق يحمل 433 شخصاً من طالبي اللجوء الأفغان الى استراليا. حاول قائدها الكابتن رينان العودة بالركاب إلى اندونيسيا ولكن الناس رفضوا وهددوا بالانتحار. غير القبطان وجهته الى جزيرة كرسماس ايلاند التابعة لأستراليا. تعرّضت البحرية الاسترالية للسفينة ومنعتها من دخول المياه الإقليمية. كان الركاب معرضين لخطر الموت المحتم فالسفينة تحمل عشرات أضعاف حمولتها والركاب ينقصهم الدواء والغذاء وشروط السلامة الأخرى. تمكنت السفينة من دخول المياه الإقليمية الاسترالية بعد مناقشات طويلة وصعبة مما أدى إلى غرق حوالي 300 شخصاً. رافق العملية حملات تشهير، ظهر كذبها، تدعي أن الأمهات كن يرمين أبناءهنَّ إلى الماء لاستدرار الشفقة

[7←]

بولين هانسن Pauline Lee Hanso

سياسية استرالية دخلت البرلمان عام 1994 وعُرفت بآرائها المتطرفة التي أثارت جدلاً واسعاً في الاوساط السياسية الأسترالية، فهي يمينية متطرفة ومحافظة الى ابعد حدود. شنت حملات ضد السكان الأصليين والمهاجرين والإسلام واليهود وهاجمت سياسة التعددية الثقافية التي تنتهجها استراليا. خطابها المتطرف جعلها محط انتقاد معظم الأحزاب الأسترالية.

[8←]

سبق ذكرها.

[9←]
في عام 1998 حصل حادث اعتداء على شاب كوري في منطقة Punchbowl غرب سدني. وبعدها بأسبوعين حصل اطلاق نار على مركز شرطة في منطقة lakemba فنسب رئيس الولاية السابق بوب كار ومفوض الشرطة بيتر رايان العملين إلى عصابات لبنانية. منذ ذلك الحين جرى تداول هذا المصطلح العنصري Lebanese Gangs في وسائل الإعلام

[10←]
غولف ويتلام Gough Whitlam رئيس وزراء استراليا (1972- 1975) ومؤسس استراليا الحديثة. أجرى إصلاحات عديدة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والقانونية والتربوية. ألغى سياسة أستراليا البيضاء وأقام مكانها أستراليا متعددة الثقافات. كما انه أسس نظام طبي مجاني Medicare تفخر به استراليا على باقي دول العالم.

[11←]
المقصود الذين غرقوا في باخرة تامبا

[12←]
لقب جمعي للكلب

[13←]
هذه ليست غلطة مطبعية. لفظة أبو عندما تكون كنية ستبقى بالواو مهما كان موقعها من الإعراب

[14←]
هي بوسطة عين الرمانة التي كانت شرارة انطلاق الحرب الأهلية في لبنان في 13 نيسان عام 1975

[15←]
تعبير شاع استعماله اثناء الحرب اللبنانية الأهلية يمعنى انه أخذ قسرا من بيته ليمثل امام حكومة الأمر الواقع

[16←]
لهجة شائعة في قرى شمال فلسطين وجنوب لبنان وتعني أخي.

[17←]
إشارة الى أسطورة الطير الأخضر الشهيرة في الأدب المحكيّ في بلاد الشام. ومختصرها أن صبياً ذبحته خالته (زوجة أبيه) وقدمته للضيوف. أكل الأب والضيوف لحم الصبي، وجمعت الأخت العظام. طحنتها ونثرتها في الهواء. بعد أيام، ظهر في سماء القرية طائر أخضر غريب يقول: أنا الطير الأخضر أمشي وأتمخطر، خالتي دباحتي وأختي الحنونة تلملم بعضاماتي. وإذ يسألونه المزيد يقول: لا أزيد حتى تفتح تلك المرأة (قاصداً زوجة أبيه) فمها، وإذ تفعل يرمي في فمها مسامير وأبر ودبابيس. ثم يقول لا أزيد حتى تفتح تلك البنت حُرْجَها (ثنية ثوبها)، فيرمي لها اللوز والسكر.

[18←]

فلسطين

[19←]
السرماية أي الحذاء. ومن الخرافات الشائعة في بلاد الشام أن قلب الحذاء يشعل الخلاف ويزيده